الرحيق المختوم

بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

تأليف
فضيلة الشيخ
صفي الرحمن المباركفوري
الجامعة السلفية - الهند

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
إدارة الشؤون الإسلامية
دولة قطر

بسم الله الرحمن الرحيم

الرحيق المختوم

بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

حُقُوق الطّبْع مَحْفُوظة
١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة
معالي الشيخ محمد علي الحركان
الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي

الحمد لله رب العالمين ، خالق السموات والأرض ، وجاعل الظلمات والنور ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والرسل أجمعين ، بشّر وأنذر ، ووعد وأوعد ، أنقذ الله به البشر من الضلالة ، وهدى الناس إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ، وبعد :

فلما أعطى الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ الشفاعة والدرجة الرفيعة ، وهدى المسلمين إلى محبته ، وجعل اتباعه من محبته تعالى فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ ، فكان هذا من الأسباب التي صيرت القلوب تهفو إلى محبته ﷺ ، وتتلمس الأسباب التي توثق الصلة فيما بينها وبينه ﷺ ، فمنذ فجر الإسلام والمسلمون يتسابقون إلى إبراز محاسنه ، ونشر سيرته العطرة ﷺ ، وسيرته ﷺ هي أقواله وأفعاله وأخلاقه الكريمة ، فقد قالت السيدة عائشة زوج النبي ﷺ رضي الله عنها : « كان خلقه القرآن » والقرآن كتاب الله وكلماته التامة ، ومن كان كذلك كان أحسن الناس وأكملهم وأحقهم بمحبة خلق الله جميعاً .

ولم يزل المسلمون متمسكين بهذه المحبة الغالية التي انبثق عنها المؤتمر الإسلامي الأول للسيرة النبوية الشريفة الذي عقد بباكستان سنة ١٣٩٦هـ ، حيث أعلنت الرابطة في هذا المؤتمر عن جوائز مالية مقدارها مائة وخمسون ألف ريال سعودي ، توزع على أحسن خمسة بحوث في السيرة النبوية بالشروط الآتية :

(١) أن يكون البحث متكاملاً مع ترتيب الحوادث التاريخية حسب وقوعها .

(٢) أن يكون جيداً ولم يسبق نشره من قبل .

(٣) أن يذكر الباحث جميع المخطوطات والمصادر العلمية التي اعتمد عليها في كتابة البحث .

(٤) أن يكتب الباحث ترجمة كاملة ومفصلة عن حياته ، مع ذكر مؤهلاته العلمية ومؤلفاته إن وجدت .

(٥) أن يكتب البحث بخط واضح ، ويستحسن نسخه على الآلة الكاتبة .

(٦) تقبل البحوث باللغة العربية واللغات الحية الأخرى .

(٧) يبدأ قبول البحوث من غرة ربيع الآخر ١٣٩٦هـ ، وينتهي موعد القبول بغرة المحرم ١٣٩٧هـ .

(٨) تسلم البحوث إلى الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة في ظرف مختوم ، وتضع الأمانة عليه رقماً تسلسلياً خاصاً .

(٩) تقوم بفحص البحوث لجنة عليا من كبار العلماء في هذا الشأن .

فكان هذا الإعلان حافزاً لتسابق العلماء الذين وهبهم الله حب رسوله ﷺ ، واستعدت رابطة العالم الإسلامي لاستقبال هذه البحوث باللغات العربية والإنجليزية والأردية وأية لغة أخرى .

وبدأ الإخوان الكرام في إرسال بحوثهم بهذه اللغات ، وقد بلغ عددها واحداً وسبعين ومائة بحث منها :

٨٤ بحثاً باللغة العربية ، ٦٤ بحثاً باللغة الأردية ، ٢١ بحثاً باللغة الإنجليزية ، وبحث واحد فقط باللغة الفرنسية ، وبحث واحد فقط باللغة الهوساوية .

وقد كونت الرابطة لجنة من كبار العلماء لدراسة هذه البحوث وترتيبها حسب استحقاق الفائز للجائزة ، وقد كان الفائزون بالجوائز حسب الترتيب الآتي :

(١) الفائز بالجائزة الأولى الشيخ صفي الرحمن المباركفوري من الجامعة السلفية بالهند ، ومقدار جائزته خمسون ألف ريال سعودي .

(٢) الفائز بالجائزة الثانية الدكتور مجيد علي خان من الجامعة المحلة الاسلامية نيودلهي الهند ، ومقدار جائزته أربعون ألف ريال سعودي .

(٣) الفائز بالجائزة الثالثة الدكتور نصير أحمد ناصر رئيس الجامعة الإسلامية بباكستان ، ومقدار جائزته ثلاثون ألف ريال سعودي .

(٤) الفائز بالجائزة الرابعة الأستاذ حامد محمود محمد منصور ليمود من جمهورية مصر العربية ، ومقدار جائزته عشرون ألف ريال سعودي .

(٥) الفائز بالجائزة الخامسة الأستاذ عبد السلام هاشم حافظ من المدينة المنورة / المملكة العربية السعودية ، ومقدار جائزته عشرة آلاف ريال سعودي .

وقد أعلنت الرابطة أسماء الفائزين في المؤتمر الإسلامي الآسيوي الأول الذي عقد في كراتشي في شهر شعبان سنة ١٣٩٨هـ . كما أعلن عن ذلك في جميع الصحف .

وبهذه المناسبة أقامت الأمانة العامة للرابطة بمقرها بمكة المكرمة حفلاً كبيراً ، تحت إشراف صاحب السمو الملكي الأمير سعود بن عبد المحسن بن عبد العزيز ، وكيل إمارة منطقة مكة المكرمة ، نيابة عن صاحب السمو الملكي الأمير فواز بن عبد العزيز أمير منطقة مكة المكرمة ، حيث تفضل سموه بتوزيع الجوائز على أصحابها ، وذلك صباح يوم السبت الموافق ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٩٩هـ . وفي هذا الحفل أعلنت الأمانة العامة أنها ستقوم بطبع البحوث الفائزة ونشرها بعدة لغات ، وتنفيذاً لذلك هاهي ذي تضع بين يدي القارىء الكريم باكورة طبعات تلك البحوث ، وهو بحث الشيخ صفي الرحمن المباركفوري ، من الجامعة السلفية بالهند لأنه الفائز بالجائزة الأولى ، وستوالي طبع بقية البحوث الفائزة حسب ترتيبها ، سائلين الله سبحانه وتعالى أن يتقبل منا جميعاً أعمالنا خالصة لوجهه الكريم ، إنه نعم المولى ونعم النصير . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الأمين العام
لرابطة العالم الإسلامي
محمد بن علي الحركان

مقدمة الناشر

ستظل سيرة الرسول ﷺ هي الرصيد التاريخي الأول الذي تستمد منه الأجيال المتلاحقة من ورثة النبوة وحملة مشاعل العقيدة زاد مسيرها ، وعناصر بقائها ، وأصول امتدادها .

ومن درس تاريخه ﷺ وأعطاه حقه من النظر والفكر والتحقيق رأى نسقا من التاريخ العجيب ، استعلى به الرسول ﷺ والفئة المؤمنة معه على عناصر المادة وعوامل الجذب الأرضي ، وارتقوا بالإنسانية إلى درجات لم تشهدها على امتداد عصورها وأزمانها .

ومن يعمق النظر في سيرته ﷺ – محاولاً أن يتتبع السر الذي وقع في التاريخ القفر المجدب فأخصب به ، وأنبتت الدنيا أزهاره الإنسانية الجميلة فأنشأ ﷺ رجالاً إن عبتهم بشيء لم تعبهم إلا أنهم دون الملائكة ، يجدها تقول له : – إن ههنا دنيا الصحراء التي تربى في أحضانها الرجال الذين دخلوا بالإسلام على ما دخل عليه الليل .

ولو تأملت في أفعاله ﷺ وجدتها تقول لك :

إني أصنع أمة لها تاريخ الأرض من بعد .

ولم يكن مثله ﷺ في الصبر على البلاء والثبات على الحق واستقرار النفس واطمئنانها على زلازل الدنيا ، ولا في الرحمة ورقة القلب والسمو فوق معاني البقاء الأرضي ، فهو قد خُلق كذلك ليغلب الحوادث ويتسلط على المادة .

وبذلك كان ﷺ منبع تاريخ في الإنسانية كلها دائماً ، وللدنيا رأس نظام أفكارها الصحيحة .

ولقد طبع الله سبحانه وتعالى على قلب الرسول ﷺ ، فباعد بينه وبين زيغ الهوى وسرف الطبيعة ، ولذلك يجب على من يقرأ سيرته ﷺ ويتعرف على شمائله وحديثه أن يبحث دائماً عن طابع الله في كل شيء فيها ، وسيظهر له من تفسيرها أن الدنيا لم تستطع أن تحقق غايتها الأخلاقية العليا إلا فيها ، وأنه ﷺ كان إنساناً ، وكان أيضاً حركة في تقدم الإنسانية ، وأن من معجزاته ﷺ أنه أضاف في تاريخه ما عجزت عنه البشرية في تاريخها ، وأن كل أموره ﷺ موضوعة وضعاً إلهياً كأنها صفات كونها الله وعلقها في التاريخ لمعاني الحياة تعليق الشمس في السماء لمواد الحياة . ولو تأملت بيانه ﷺ ، تجده ينقلك إلى مثل الحالة التي تتأمل فيها روضة تتنفس على القلب ، أو منظراً يهز خياله النفس ، أو عاطفة تزيد بها الحياة في الدم ، على هدوء وروح وإحساس ولذة ، ثم يزيد على ذلك أنه يصلح من الجهات الإنسانية في نفسك ، ثم يرزق الله منه من رزق النور ، فإذا أنت في ذوق البيان كأنما ترى المتكلم ﷺ وراء كلامه .

هذا يكون النظر في كلامه ﷺ ، فهو كلام كلما زدته فكراً زادك معنى ، وتفسيره قريب .. قريب كالروح في جسمها البشري ، ولكنه بعيد كالروح في سرها الإلهي ، فهو معك على قدر ما أنت معه ، إن وقفت على حدٍّ وقف ، وإن مددت مد ، وما أديت به تأدى ، وليس فيه شيء من كل ما تراه لكل بلغاء الدنيا ، من صناعة عبث القول ، والرغبة في تكثير سواد المعاني ، وترك اللسان يطيش طيشة اللغوي يتعلق بكل ما عرض له ، إنما هو كلام قيل لتصير به المعاني إلى حقائقها ، فهو من لسان وراء فكر ، وراءه قلب ، وراءه إيمان ، وراءه الله جل جلاله ، وهو كلام في مجموعه كأنه دنيا أصدرها ﷺ عن نفسه العظيمة ، لا تبرح ماضية في طريقها السوي على دين الفطرة فلا تتسع لخلاف ولا يقع بها التنافر .

من هنا تبرز الأهمية القصوى في أن تكون سيرة الرسول ﷺ وأقواله عاملة في النفس المؤمنة عمل القلب من الجسد ، ورقيبة عليها رقابة الضمير على العقل ، حتى يكون الارتقاء والسمو والعلو والارتفاع بالأجسام فوق جواذب المادة وقيود الأرض .

ولن تستطيع النفس أن تحقق هذه المقوّمات وبها بقايا من رواسب المادة أو جواذب الأرض ، ولن تستطيع النفس أن ترفرف وتحلق إلا إذا أدركت غاية وجودها من خلال رصيدها التاريخي الطويل ، الذي لم تظفر به أمة من الأمم كما ظفرت أمة الإسلام ، إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق

الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة » . عبارات تفيض إيماناً وتشع ضياءً ، وخرجت من نفس تربت على يد القائد والمعلم الأول ﷺ ، فأدركت غاية وجودها فعملت على تحقيقها .. وهكذا يجب أن يكون كل من أراد أن يشارك الكتائب في سيرها في الطريق الطويل .

وللأهمية التي تحتلها سيرة الرسول ﷺ في حياة المسلمين على امتداد التاريخ وفي حياتهم الحاضرة ؛ فقد وضعت كتب كثيرة اختلفت نظراتها للسيرة ومناهجها في تناولها ، ولكن كانت هناك بعض الكتب في هذا المجال امتازت بشمولها وكمالها ودقة منهجها ، بما يعين القارىء على أن يتناول مسيرة الرسول ﷺ في يسر يعينه على فهمها فهماً شاملاً كاملاً واستيعابها دون ما نقص أو خلل .

وكان هذا الكتاب « الرحيق المختوم » للأستاذ صفي الرحمن المباركفوري – من الجامعة السلفية بالهند – من الكتب المتفردة في السرد التاريخي والذي امتاز بمنهجه الواضح وشموليته الجامعة في عرض السيرة العطرة عرضاً عميقاً يسيراً ، خالياً من الشوائب أو الأباطيل التي ألحقت ببعض كتب السيرة .

ويمتاز هذا الكتاب أيضاً في كونه معيناً لكل قارىء أو باحث في السيرة أن يجد بغيته فيه .

وقد فاز هذا الكتاب بالجائزة الأولى لمسابقة السيرة النبوية التي نظمتها رابطة العالم الإسلامي .

ولا ننسى هنا أن ننوه بإضافة هذا الجهد إلى الجهود العظيمة التي بذلها العلماء الهنود على امتداد العصور ، في حرصهم وحفظهم للتراث الإسلامي وإبداعهم الفذ في مجالات التفسير والسيرة والحديث وعلومه بخاصة .

ونحن إذ نقدم هذا الكتاب إلى المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ؛ نسأل الله أن يعم به الفائدة والنفع .

والله من وراء القصد

الناشر

كلمة المؤلف

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فجعله شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، وجعل فيه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وفجر لهم ينابيع الرحمة والرضوان تفجيراً .

وبعد ، فإن من دواعي الغبطة والسرور أن رابطة العالم الإسلامي أعلنت عقب مؤتمر السيرة النبوية الذي انعقد في باكستان في شهر ربيع الأول من سنة ١٣٩٦هـ بإقامة مسابقة على مستوى العالم الإسلامي ، للبحث حول موضوع السيرة النبوية – على صاحبها ألف ألف صلاة وسلام – تنشيطا للكاتبين ، وتنسيقا لجهودهم الفكرية ، وإني أرى أن هذا العمل له قيمة كبيرة ربما لا يحيط بوصفها البيان . فإن السيرة النبوية والأسوة المحمدية على صاحبها ما يستحق من الصلاة والسلام – إذا لاحظناها بعين الدقة والاعتبار – هي المنبع الوحيد الذي تتفجر منه ينابيع حياة العالم الإسلامي وسعادة المجتمع البشري .

وإن من سعادتي وحسن حظي أني أساهم في تلك المسابقة المباركة ، ولكن أين أنا حتى ألقي ضوءاً على حياة سيد الأولين والآخرين ﷺ . وإنما أنا رجل يرى لنفسه كل السعادة والفلاح أن يقتبس من نوره ، حتى لا يتهالك في دياجير الظلمات ، بل يحيا وهو من أمته ، ويموت وهو من أمته ، ويغفر الله له ذنوبه بشفاعته .

وكلمة بسيطة أرى أن أقدمها عن منهجي في مقالتي هذه : إني قبل أن آخذ في كتابة المقالة رأيت أن أضعها في حجم متوسط متجنبا التطويل الممل والإيجاز المخل ، ولكني كثيراً ما رأيت في المصادر اختلافاً كبيراً في ترتيب الوقائع ، أو في تفصيل جزئياتها ، وفي مثل هذه المواقع قمت

بالتحقيق البالغ ، وأدرت النظر في جميع جوانب البحث . ثم أثبت في صلب المقالة ما ترجح لديَّ بعد التحقيق . ولكن احترزت عن إيراد الدلائل والبراهين ؛ لأن ذلك يفضي إلى طول غير مطلوب . نعم ! ربما أشرت إلى الدلائل حين خفت الاستغراب ممن يقرأ المقالة ، أو حين رأيت عامة الكاتبين ذهبوا إلى خلاف الصحيح .

اللهم قدر لي الخير في الدنيا والآخرة ، إنك أنت الغفور الودود ذو العرش المجيد .

الجمعة المباركة ٢٤ / ٧ / ١٣٩٦ هـ

٢٣ / ٧ / ١٩٧٦ م

صفي الرحمن المباركفوري

الجامعة السلفية

بنارس الهند

* * *

موقع العرب وأقوامها

إن السيرة النبوية – على صاحبها الصلاة والسلام – عبارة في الحقيقة عن الرسالة التي حملها رسول الله ﷺ إلى المجتمع البشري ، وأخرج بها الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله . وإذن فلا يمكن إحضار صورتها الرائعة بتمامها إلا بعد المقارنة بين خلفيات هذه الرسالة وآثارها . ونظراً إلى ذلك نقدم فصلا عن أقوام العرب وتطوراتها قبل الإسلام ، وعن الظروف التي بُعث فيها محمد ﷺ .

موقع العرب:

العرب لغة : الصحارى والقفار ، والأرض المجدبة التي لا ماء فيها ولا نبات . وقد أطلق هذا اللفظ منذ أقدم العصور على جزيرة العرب . كما أطلق على قوم قطنوا تلك الأرض ، واتخذوها موطناً لهم .

وجزيرة العرب يحدها غرباً البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء ، وشرقاً الخليج العربي وجزء كبير من بلاد العراق الجنوبية ، وجنوباً بحر العرب الذي هو امتداد لبحر الهند ، وشمالاً بلاد الشام وجزء من بلاد العراق على اختلاف في بعض هذه الحدود ، وتقدر مساحتها ما بين مليون ميل مربع إلى مليون وثلاثمائة ألف ميل مربع .

والجزيرة لها أهمية بالغة من حيث موقعها الطبيعي والجغرافي ؛ فأما باعتبار وضعها الداخلي فهي محاطة بالصحارى والرمال من كل جانب ، ومن أجل هذا الوضع صارت الجزيرة حصناً منيعاً لا يسمح للأجانب أن يحتلوها ويبسطوا عليها سيطرتهم ونفوذهم . ولذلك نرى سكان الجزيرة أحراراً في جميع الشئون منذ أقدم العصور ، مع أنهم كانوا مجاورين لإمبراطوريتين عظيمتين

لم يكونوا يستطيعون دفع هجماتهما لولا هذا السد المنيع .

وأما بالنسبة إلى الخارج فإنها تقع بين القارات المعروفة في العالم القديم . وتلتقي بها براً وبحراً . فإن ناحيتها الشمالية الغربية باب للدخول في قارة إفريقية ، وناحيتها الشمالية الشرقية مفتاح لقارة أوربا ، والناحية الشرقية تفتح أبواب العجم والشرق الأوسط والأدنى . وتفضي إلى الهند والصين ، وكذلك تلتقي كل قارة بالجزيرة بحراً ، وترسي سفنها وبواخرها على ميناء الجزيرة رأساً .

ولأجل هذا الوضع الجغرافي كان شمال الجزيرة وجنوبها مهبطاً للأمم ومركزاً لتبادل التجارة ، والثقافة ، والديانة ، والفنون .

أقوام العرب:

وأما أقوام العرب فقد قسمها المؤرخون إلى ثلاثة أقسام بحسب السلالات التي ينحدرون منها :

(١) **العرب البائدة** : وهم العرب القدامى الذين لم يمكن الحصول على تفاصيل كافية عن تاريخهم ، مثل : عاد وثمود وطسم وجديس وعملاق وسواها .

(٢) **العرب العاربة** : وهم العرب المنحدرة من صلب يعرب بن يشجب بن قحطان ، وتسمى بالعرب القحطانية .

(٣) **العرب المستعربة** : وهي العرب المنحدرة من صلب إسماعيل ، وتسمى بالعرب العدنانية .

أما العرب العاربة – وهي شعب قحطان – فمهدها بلاد اليمن ، وقد تشعبت قبائلها وبطونها فاشتهرت منها قبيلتان :

(أ) حمير ، وأشهر بطونها زيد الجمهور ، وقضاعة ، والسكاسك .

(ب) كهلان ، وأشهر بطونها همدان ، وأنمار ، وطيء ، ومذحج ، وكندة ، ولخم ، وجذام ، والأزد ، والأوس ، والخزرج ، وأولاد جفنة ملوك الشام .

وهاجرت بطون كهلان عن اليمن ، وانتشرت في أنحاء الجزيرة ، وكانت هجرة معظمهم قبيل سيل العرم حين فشلت تجارتهم ؛ لضغط الرومان وسيطرتهم على طريق التجارة البحرية ، وإفسادهم طريق البر بعد احتلالهم بلاد مصر والشام .

ولا غرو فقد كانت منافسة بين بطون كهلان وبطون حمير أدت إلى جلاء كهلان ، ويشير إلى ذلك بقاء حمير مع جلاء كهلان .

ويمكن تقسيم المهاجرين من بطون كهلان إلى أربعة أقسام :

(١) الأزد – وكانت هجرتهم على رأي سيدهم وكبيرهم عمران بن عمرو مزيقباء . فساروا يتنقلون في بلاد اليمن ويرسلون الرواد ، ثم ساروا بعد ذلك إلى الشمال . وهاك تفصيل الأماكن التي سكنوا فيها بعد الرحلة نهائياً : عطف ثعلبة بن عمرو من الأزد نحو الحجاز ، فأقام بين الثعلبية وذي قار ، ولما كبر ولده وقوي ركنه سار نحو المدينة ، فأقام بها واستوطنها . ومن أبناء ثعلبة هذا : الأوس والخزرج ، ابنا حارثة بن ثعلبة .

وانتقل منهم حارثة بن عمرو – وهو خزاعة – وبنوه في ربوع الحجاز ، حتى نزلوا بمر الظهران ، ثم افتتحوا الحرم فقطنوا مكة وأجلوا سكانها الجراهمة .

ونزل عمران بن عمرو في عمان ، واستوطنها هو وبنوه ، وهم أزد عمان ، وأقامت قبائل نصر بن الأزد بتهامة ، وهم أزد شنوءة .

وسار جفنة بن عمرو إلى الشام فأقام بها هو وبنوه ، وهو أبو الملوك الغساسنة . نسبة إلى ماء في الحجاز يعرف بغسان كانوا قد نزلوا بها أولا قبل تنقلهم إلى الشام .

(٢) لخم وجذام – وكان في اللخميين نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة .

(٣) بنو طيء – ساروا بعد مسير الأزد نحو الشمال حتى نزلوا بالجبلين أجا وسلمى ، وأقاموا هناك ، حتى عرف الجبلان بجبلي طيء .

(٤) كندة – نزلوا بالبحرين ، ثم اضطروا إلى مغادرتها فنزلوا بحضرموت ، ولاقوا هناك ما لاقوا بالبحرين ، ثم نزلوا نجد ، وكونوا هناك حكومة كبيرة الشأن ولكنها سرعان ما فنيت وذهبت آثارها .

وهناك قبيلة من حمير مع اختلاف في نسبتها إليه – وهي قضاعة – هجرت اليمن واستوطنت بادية السماوة من مشارف العراق[1] .

(١) انظر لتفصيل هذه القبائل وهجراتها : محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١/١١-١٣ وقلب جزيرة العرب ص٢٣١ إلى ٢٣٥ – واختلفت المصادر التاريخية اختلافاً كبيراً في تعيين زمن هذه الهجرات وأسبابها=

وأما العرب المستعربة فأصل جدهم الأعلى – وهو سيدنا إبراهيم عليه السلام – من بلاد العراق ، من بلدة يقال لها « أر » على الشاطىء الغربي من نهر الفرات ، بالقرب من الكوفة ، وقد جاءت الحفريات والتنقيبات بتفاصيل واسعة عن هذه البلدة وعن أسرة إبراهيم عليه السلام ، وعن الأحوال الدينية والاجتماعية في تلك البلاد[1] .

ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام هاجر منها إلى حاران أو حران ، ومنها إلى فلسطين ، فاتخذها قاعدة لدعوته ، وكانت له جولات في أرجاء هذه البلاد وغيرها[2] وقدم مرة إلى مصر ، وقد حاول فرعون مصر كيداً وسوءاً بزوجته سارة ولكن الله ردّ كيده في نحره ، وعرف فرعون ما لسارة من الصلة القوية بالله ، حتى أخدمها ابنته[3] هاجر ؛ اعترافاً بفضلها ، وزوجتها سارة إبراهيم[4] .

ورجع إبراهيم إلى فلسطين ، ورزقه الله من هاجر إسماعيل ، وغارت سارة حتى ألجأت إبراهيم إلى نفي هاجر مع ولدها الصغير – إسماعيل – فقدم بهما إلى الحجاز ، وأسكنهما بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم الذي لم يكن إذ ذاك إلا مرتفعاً من الأرض كالرابية ، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله ، فوضعهما عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء . فوضع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ورجع إلى فلسطين ، ولم تمض أيام حتى نفد الزاد والماء ، وهناك تفجرت بئر زمزم بفضل الله ، فصارت قوتاً لهما وبلاغاً إلى حين . والقصة معروفة بطولها[5] .

وجاءت قبيلة يمانية – وهي جرهم الثانية – فقطنت مكة بإذن من أم إسماعيل يقال إنهم كانوا قبل ذلك في الأودية التي بأطراف مكة . وقد صرحت رواية البخاري أنهم نزلوا مكة بعد

= وبعد إدارة النظر من جميع الجوانب أثبتنا ما ترجح عندنا في هذا الباب من حيث الدليل .

(١) تفهم القرآن للسيد أبي الأعلى المودودي ١/٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ .

(٢) نفس المصدر ١/١٠٨ .

(٣) المعروف أن هاجر كانت أمة مملوكة ، ولكن حقق الكاتب الكبير العلامة القاضي محمد سليمان المنصورفوري أنها كانت حرة ، وكانت ابنة فرعون – انظر رحمة للعالمين – ٢/٣٦–٣٧ .

(٤) نفس المصدر ٢/٣٤ وانظر في تفصيل القصة : صحيح البخاري ١/٤٧٤ .

(٥) انظر صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء ١/٤٧٤–٤٧٥ .

إسماعيل ، وقبل أن يشب ، وأنهم كانوا يمرون بهذا الوادي قبل ذلك[1] .

وقد كان إبراهيم يرحل إلى مكة بين آونة وأخرى ليطالع تركته ، ولا يعلم كم كانت هذه الرحلات ، إلا أن المصادر التاريخية الموثوقة حفظت أربعة منها .

فقد ذكر الله تعالى في القرآن أنه أرى إبراهيم في المنام أنه يذبح إسماعيل ، فقام بامتثال هذا الأمر ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾[2] .

وقد ذكر في سفر التكوين أن إسماعيل كان أكبر من إسحق بثلاث عشرة سنة ، وسياق القصة يدل على أنها وقعت قبل ميلاد إسحاق ، لأن البشارة بإسحق ذكرت بعد سرد القصة بتمامها .

وهذه القصة تتضمن رحلة واحدة – على الأقل – قبل أن يشب إسماعيل ، أما الرحلات الثلاث الأخر فقد رواها البخاري بطولها عن ابن عباس مرفوعاً[3] وملخصها أن إسماعيل لما شب وتعلم العربية من جرهم ، وأنفسهم وأعجبهم زوجوه امرأة منهم ، وماتت أمه ، وبدا لإبراهيم أن يطالع تركته فجاء بعد هذا التزوج ، فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه وعن أحوالهما ، فشكت إليه ضيق العيش فأوصاها أن تقول لإسماعيل أن يغير عتبة بابه ، وفهم إسماعيل ما أراد أبوه ، فطلق امرأته تلك وتزوج امرأة أخرى ، وهي ابنة مضاض بن عمرو ، كبير جرهم وسيدهم[4] .

وجاء إبراهيم مرة أخرى بعد هذا التزوج الثاني فلم يجد إسماعيل فرجع إلى فلسطين بعد أن سأل زوجته عنه وعن أحوالهما فأثنت على الله ، فأوصى إلى إسماعيل أن يثبت عتبة بابه .

وجاء مرة ثالثة فلقي إسماعيل وهو يبري نبلا له تحت دوحة قريباً من زمزم فلما رآه قام إليه فصنع كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ، وكان لقاؤهما بعد فترة طويلة من الزمن ، قلما يصير فيها الأب الكبير الأواه العطوف عن ولده ، والولد البار الصالح الرشيد عن أبيه وفي هذه المرة بنيا

---

(١) نفس المصدر ١/٤٧٥ .

(٢) الآيات ١٠٣–١٠٧ من سورة الصافات .

(٣) ج١/٤٧٥–٤٧٦ .

(٤) قلب جزيرة العرب ص٢٣٠ .

الكعبة ، ورفعا قواعدها ، وأذن إبراهيم في الناس بالحج كما أمره الله .

وقد رزق الله إسماعيل من ابنة مضاض اثني عشر ولداً ذكراً[1] وهم : نابت أو نبايوط ، قيدار ، وأدبائيل ، ومبشام ، ومشماع ، ودوما ، وميشا ، وحدد ، ويتما ، ويطور ، ونفيس ، وقيدمان ، وتشعبت من هؤلاء اثنتا عشرة قبيلة ، سكنت كلها في مكة مدة ، وكانت جل معيشتهم التجارة من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ومصر ثم انتشرت هذه القبائل في أرجاء الجزيرة بل وإلى خارجها . ثم أدرجت أحوالهم في غياهب الزمان ، إلا أولاد نابت وقيدار .

وقد ازدهرت حضارة الأنباط – أبناء نابت – في شمال الحجاز ، وكونوا حكومة قوية دان لها من بأطرافها ، واتخذوا البطراء عاصمة لهم ، ولم يكن يستطيع مناوأتهم أحد حتى جاء الرومان فقضوا عليهم ، وقد رجح السيد سليمان الندوي بعد البحث الأنيق والتحقيق الدقيق أن ملوك آل غسان وكذا الأنصار من الأوس والخزرج لم يكونوا من آل قحطان ، وإنما كانوا من آل نابت بن إسماعيل ، وبقاياهم في تلك الديار[2] .

وأما قيدار بن إسماعيل فلم يزل أبناؤه بمكة يتناسلون هناك حتى كان منه عدنان وولده معد ، ومنه حفظت العرب العدنانية أنسابها . وعدنان هو الجد الحادي والعشرون في سلسلة النسب النبوي ، وقد ورد أنه ﷺ كان إذا انتسب فبلغ عدنان يمسك ويقول : كذب النسابون ، فلا يتجاوزه[3] . وذهب جمع من العلماء إلى جواز رفع النسب فوق عدنان ، مضعفين للحديث المشار إليه ، وقالوا إن بين عدنان وبين إبراهيم عليه السلام أربعين أباً بالتحقيق الدقيق[4] .

وقد تفرقت بطون معد من ولده نزار – قيل لم يكن لمعد ولد غيره – فكان لنزار أربعة أولاد ، تشعبت منهم أربعة قبائل عظيمة : إياد وأنمار وربيعة ومضر ، وهذان الأخيران هما اللذان كثرت بطونهما واتسعت أفخاذهما ، فكان من ربيعة : أسد بن ربيعة ، وعنزة ، وعبد القيس ، وابنا وائل – بكر ، وتغلب – وحنيفة وغيرها .

---

(١) نفس المصدر .

(٢) انظر تاريخ أرض القرآن ٢/٧٨ إلى ٨٦ .

(٣) انظر الطبري ٢/١٩١-١٩٤ والأعلام ٥/٦ .

(٤) رحمة للعالمين ٢/٧ ، ٨ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ .

وتشعبت قبائل مضر إلى شعبتين عظيمتين : قيس عيلان بن مضر ، وبطون إلياس بن مضر . فمن قيس عيلان : بنو سليم ، وبنو هوازن ، وبنو غطفان ، ومن غطفان : عبس وذبيان ، وأشجع وغني بن أعصر .

ومن إلياس بن مضر : تميم بن مرة ، وهذيل بن مدركة ، وبنو أسد بن خزيمة وبطون كنانة بن خزيمة ، ومن كنانة : قريش ، وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة .

وانقسمت قريش إلى قبائل شتى ، من أشهرها : جمح ، وسهم ، وعدي ، ومخزوم ، وتيم ، وزهرة ، وبطون قصي بن كلاب ، وهي عبد الدار بن قصي ، وأسد بن عبد العزى بن قصي ، وعبد مناف بن قصي .

وكان من عبد مناف أربع فصائل : عبد شمس ، ونوفل ، والمطلب ، وهاشم وبيت هاشم هو الذي اصطفى الله منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ﷺ[1] .

قال ﷺ : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم »[2] .

وعن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله خلق الخلق فجعلني من خير فرقهم وخير الفريقين ، ثم تخير القبائل ، فجعلني من خير القبيلة ، ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم ، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً »[3] .

ولما تكاثر أولاد عدنان تفرقوا في أنحاء شتى من بلاد العرب ، متتبعين مواقع القطر ومنابت العشب .

فهاجرت عبد القيس ، وبطون من بكر بن وائل ، وبطون من تميم إلى البحرين فأقاموا بها .

وخرجت بنو حنيفة بن صعب بن علي بن بكر إلى اليمامة فنزلوا بحجر ، قصبة اليمامة .

---

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١/١٤ ، ١٥ .

(٢) رواه مسلم عن واثلة بن الأسقع ، باب فضل نسب النبي ﷺ ٢/٢٤٥ والترمذي ٢/٢٠١ .

(٣) رواه الترمذي ، باب ما جاء في فضل النبي ﷺ ٢/٢٠١ .

وأقامت سائر بكر بن وائل في طول الأرض من اليمامة إلى البحرين إلى سيف كاظمة إلى البحر ، فأطراف سواد العراق ، فالأبلة فهيت .

وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية ، ومنها بطون كانت تساكن بكراً . وسكنت بنو تميم ببادية البصرة .

وأقامت بنو سليم بالقرب من المدينة ، من وادي القرى إلى خيبر إلى شرقي المدينة إلى حد الجبلين ، إلى ما ينتهي إلى الحرة .

وسكنت ثقيف بالطائف ، وهوازن في شرقي مكة بنواحي أوطاس ، وهي على الجادة بين مكة والبصرة .

وسكنت بنو أسد شرقي تيماء وغربي الكوفة ، بينهم وبين تيماء ديار بحتر من طيء ، وبينهم وبين الكوفة خمس ليال .

وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء إلى حوران .

وبقي بتهامة بطون كنانة ، وأقام بمكة وضواحيها بطون قريش ، وكانوا متفرقين لا تجمعهم جامعة حتى نبغ فيهم قصي بن كلاب ، فجمعهم ، وكون لهم وحدة شرفتهم ورفعت من أقدارهم[1] .

---

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١/١٥-١٦ .

الحكم والإمارة في العرب

حينما أردنا أن نتكلم عن أحوال العرب قبل الإسلام ؛ رأينا أن نضع صورة مصغرة من تاريخ الحكومة والإمارة والملل والأديان في العرب ، حتى يسهل علينا فهم الأوضاع الطارئة عند ظهور الإسلام .

كان حكام الجزيرة حين بزغت شمس الإسلام قسمين : قسم منهم ملوك متوجون ، لكنهم كانوا في الحقيقة غير مستقلين ، وقسم هم رؤساء القبائل والعشائر ، لهم ما للملوك من الحكم والامتياز ، ومعظم هؤلاء كانوا على تمام الاستقلال . وربما كانت لبعضهم تبعية لملك متوج ، والملوك المتوجون هم ملوك اليمن ، وملوك آل غسان ، وملوك الحيرة ، وما عدا هؤلاء من حكام الجزيرة فلم تكن لهم تيجان .

الملك باليمن:

من أقدم الشعوب التي عرفت باليمن من العرب العاربة قوم سبأ ، وقد عثر على ذكرهم في حفريات « أور » بخمسة وعشرين قرناً قبل الميلاد . ويبدأ ازدهار حضارتهم ونفوذ سلطانهم وبسط سيطرتهم بأحد عشر قرناً قبل الميلاد .

ويمكن تقسيم أدوارهم حسب التقدير الآتي :

(١) القرون التي خلت قبل سنة ٦٥٠ق.م ، وكان ملوكهم يلقبون في هذا الزمن بـ « مكرب سبأ » وكانت عاصمتهم بلدة « صرواح » التي توجد أنقاضها على مسافة يوم إلى الجانب الغربي من بلدة « مأرب » وتعرف باسم « خريبة » وفي زمنهم بدأ بناء السد الذي عرف بسد

مأرب ، والذي له شأن كبير في تاريخ اليمن ، ويقال إن سبأ بلغوا من بسط سلطتهم إلى أن اتخذوا المستعمرات في داخل بلاد العرب وخارجها .

(٢) منذ سنة ٦٥٠ق.م إلى سنة ١١٥ق.م وفي هذا الزمن تركوا لقب « مكرب » وعرفوا بملوك سبأ ، واتخذوا « مأرب » عاصمة لهم بدل « صرواح » وتوجد أنقاضها على بعد ستين ميلاً من صنعاء إلى جانبها الشرقي .

(٣) منذ سنة ١١٥ق.م إلى سنة ٣٠٠م ، وفي هذا العهد غلبت قبيلة حمير على مملكة سبأ ، واتخذت بلدة « ريدان » عاصمة لها بدل « مأرب » . ثم سميت بلدة « ريدان » باسم ظفار ، وتوجد أنقاضها على جبل مدور بالقرب من « يريم » وفي هذا العهد بدأ فيهم السقوط والانحطاط ، فقد فشلت تجارتهم إلى حد كبير ؛ لبسط سيطرة الأنباط في شمال الحجاز أولاً ، ثم لغلبة الرومان على طرق التجارة البحرية بعد نفوذ سلطانهم على مصر وسوريا وشمالي الحجاز ثانياً ، ولتنافس القبائل فيما بينها ثالثاً . وهذه العناصر هي التي سببت في تفرق آل قحطان وهجرتهم إلى البلاد الشاسعة .

(٤) منذ سنة ٣٠٠م إلى أن دخل الإسلام في اليمن . وفي هذا العهد توالت عليهم الاضطرابات والحوادث ، وتتابعت الانقلابات ، والحروب الأهلية التي جعلتهم عرضة للأجانب حتى قضت على استقلالهم ، ففي هذا العهد دخل الرومان في عدن ، وبمعونتهم احتلت الأحباش اليمن لأول مرة سنة ٣٤٠م ، مستغلين التنافس بين قبيلتي همدان وحمير ، واستمر احتلالهم إلى سنة ٣٧٨م . ثم نالت اليمن استقلالها ، ولكن بدأت تقع الثلمات في سد مأرب ، حتى وقع السيل العظيم الذي ذكره القرآن بسيل العرم في سنة ٤٥٠م أو ٤٥١م . وكانت حادثة كبرى أدت إلى خراب العمران وتشتت الشعوب .

وفي سنة ٥٢٣م قاد ذو نواس اليهودي حملة منكرة على المسيحيين من أهل نجران ، وحاول صرفهم عن المسيحية قسراً . ولما أبوا خد لهم الأخدود وألقاهم في النيران ، وهذا الذي أشار إليه القرآن في سورة البروج بقوله : ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾ الآيات ، وكان من جراء ذلك نقمة النصرانية الناشطة إلى الفتح والتوسع تحت قيادة أباطرة الرومان على بلاد العرب ، فقد حرضوا

الأحباش ، وهيأوا لهم الأسطول البحري ، فنزل سبعون ألف جندي من الحبشة ، واحتلوا اليمن مرة ثانية ، بقيادة أرياط سنة ٥٢٥م ، وظل أرياط حاكماً من قبل ملك الحبشة حتى اغتاله أبرهة ـ أحد قواد جيشه ـ وحكم بدله بعد أن استرضى ملك الحبشة ، وأبرهة هذا هو الذي جند الجنود لهدم الكعبة ، وعرف هو وجنوده بأصحاب الفيل .

وبعد وقعة الفيل استنجد اليمانيون بالفرس ، وقاموا بمقاومة الحبشة حتى أجلوهم عن البلاد ، ونالوا الاستقلال في سنة ٥٧٥م بقيادة معد يكرب بن سيف ذي يزن الحميري ، واتخذوه ماكاً لهم ، وكان معد يكرب أبقى معه جمعاً من الحبشة يخدمونه ويمشون في ركابه ، فاغتالوه ذات يوم ، وبموته انقطع الملك عن بيت ذي يزن ، وولى كسرى عاملاً فارسياً على صنعاء ، وجعل اليمن ولاية فارسية فلم تزل الولاة من الفرس تتعاقب على اليمن حتى كان آخرهم باذان الذي اعتنق الإسلام سنة ٦٣٨م . وبإسلامه انتهى نفوذ فارس على بلاد اليمن[1] .

الملك بالحيرة:

كانت الفرس تحكم على العراق وما جاورها منذ أن جمع شملهم قوروش الكبير (٥٥٧ ـ ٥٢٩) ق.م ولم يكن أحد يناوئهم ، حتى قام الإسكندر المقدوني سنة ٣٢٦ق.م فهزم ملكهم دارا الأول ، وكسر شوكتهم ، حتى تجزأت بلادهم وتولاها ملوك يعرفون بملوك الطوائف ، واستمروا يحكمون البلاد مجزأة إلى سنة ٢٣٠م . وفي عهد هؤلاء الملوك هاجر القحطانيون ، واحتلوا جزءاً من ريف العراق ثم لحقهم من هاجر من العدنانيين فزاحموهم حتى سكنوا جزءاً من الجزيرة الفراتية .

وعادت القوة مرة ثانية إلى الفرس في عهد أردشير ـ مؤسس الدولة الساسانية منذ سنة ٢٢٦م ـ فإنه جمع شمل الفرس ، واستولى على العرب المقيمين على تخوم ملكه ، وكان هذا سبباً في رحيل قضاعة إلى الشام ، ودان له أهل الحيرة والأنبار .

---

(١) انظر في تفصيل ذلك : تفهيم القرآن ٤/١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، وتاريخ أرض القرآن ج١/ من ص١٣٣ إلى نهاية الكتاب ، وفي تعيين السنين اختلاف كبير بين المصادر التاريخية ، وقد قال بعض الكتاب عن هذه التفاصيل ﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ .

وفي عهد أردشير كانت ولاية جذيمة الوضاح على الحيرة وسائر من ببادية العراق والجزيرة من ربيعة ومضر ، وكان أردشير رأى أنه يستحيل عليه أن يحكم العرب مباشرة ، ويمنعهم من الإغارة على تخوم ملكه ، إلا أن يملك عليهم رجلاً منهم له عصبية تؤيده وتمنعه ، ومن جهة أخرى يمكنه الاستعانة بهم على ملوك الرومان الذين كان يتخوفهم ، وليكون عرب العراق أمام عرب الشام الذين اصطنعهم ملوك الرومان ، وكان يبقي عند ملك الحيرة كتيبة من جند الفرس ؛ ليستعين بها على الخارجين على سلطانه من عرب البادية ، وكان موت جذيمة حوالي سنة ٢٦٨م .

وبعد موت جذيمة ولى الحيرة عمرو بن عدي بن نصر اللخمي ، أول ملوك اللخميين – في عهد كسرى سابور بن أردشير – ثم لم تزل الملوك من اللخميين تتوالى على الحيرة حتى ولى الفرس قباذ بن فيروز ، وفي عهده ظهر مزدك ، وقام بالدعوة إلى الإباحية ، فتبعه قباذ كما تبعه كثير من رعيته ، ثم أرسل قباذ إلى ملك الحيرة – وهو المنذر بن ماء السماء – يدعوه إلى أن يختار هذا المذهب ويدين به ، فأبى عليه حمية وأنفة ، فعزله قباذ ، وولى بدله الحارث بن عمرو بن حجر الكندي بعد أن أجاب دعوته إلى المذهب المزدكي .

وخلف قباذ كسرى أنوشروان ، وكان يكره هذا المذهب جداً ، فقتل المزدك وكثيراً ممن دان بمذهبه ، وأعاد المنذر إلى ولاية الحيرة ، وطلب الحارث بن عمرو لكنه أفلت إلى دار كلب ، فلم يزل فيهم حتى مات .

واستمر الملك بعد المنذر بن ماء السماء في عقبه ، حتى كان النعمان بن المنذر ، وهو الذي غضب عليه كسرى بسبب وشاية دبرها زيد بن عدي العبادي ، وأرسل كسرى إلى النعمان يطلبه ، فخرج النعمان حتى نزل سراً على هانىء بن مسعود سيد آل شيبان ، فأودعه أهله وماله ، ثم توجه إلى كسرى ، فحبسه كسرى حتى مات وولى على الحيرة بدله إياس بن قبيصة الطائي ، وأمره أن يرسل إلى هانىء بن مسعود يطلب منه تسليم ما عنده ، فأبى ذلك هانىء حمية ، وآذن الملك بالحرب ، ولم تلبث أن جاءت مرازبة كسرى وكتائبه في موكب إياس ، وكانت بين الفريقين موقعة هائلة عند ذي قار ، وانتصر فيها بنو شيبان ، وانهزمت الفرس هزيمة منكرة . وهذا أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم ، وهو بعد ميلاد الرسول ﷺ بقليل ، فإنه عليه السلام ولد لثمانية أشهر من ولاية إياس بن قبيصة على الحيرة .

وولى كسرى على الحيرة بعد إياس حاكماً فارسياً ، وفي سنة ٦٣٢م عاد الملك إلى آل لخم ، فتولى منهم المنذر الملقب بالمغرور ، ولم تزد ولايته على ثمانية أشهر حتى قدم عليه خالد بن الوليد بعساكر المسلمين[١] .

الملك بالشام:

في العهد الذي ماجت فيه العرب بهجرات القبائل صارت بطون من قضاعة إلى مشارف الشام وسكنت بها ، وكانوا من بني سليح بن حلوان الذين منهم بنو ضجعم بن سليح المعروفون باسم الضجاعمة ، فاصطنعهم الرومان ؛ ليمنعوا عرب البرية من العبث ، وليكونوا عدة ضد الفرس ، وولوا منهم ملكاً ، ثم تعاقب الملك فيهم سنين ، ومن أشهر ملوكهم زياد بن الهبولة ، ويقدر زمنهم من أوائل القرن الثاني الميلادي إلى نهايته تقريباً ، وانتهت ولايتهم بعد قدوم آل غسان ، الذين غلبوا الضجاعمة على ما بيدهم وانتصروا عليهم ، فولتهم الروم ملوكاً على عرب الشام ، وكانت قاعدتهم دومة الجندل ، ولم تزل تتوالى الغساسنة على الشام بصفتهم عمالاً للروك الروم حتى كانت وقعة اليرموك سنة ١٣هـ ، وانقاد للإسلام آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٢] .

الإمارة بالحجاز:

ولي إسماعيل عليه السلام زعامة مكة وولاية البيت طول حياته[٣] . وتوفي وله ١٣٧ سنة[٤] . ثم ولي اثنان من أبنائه نابت ثم قيدار ، ويقال العكس ، ثم ولي أمر مكة بعدهما جدّهما مضاض بن عمرو الجرهمي ، فانتقلت زعامة مكة إلى جرهم ، وظلت في أيديهم ، وكان لأولاد إسماعيل مركز محترم ؛ لما لأبيهم من بناء البيت ، ولم يكن لهم من الحكم شيء[٥] .

ومضت الدهور والأيام ولم يزل أمر أولاد إسماعيل عليه السلام ضئيلاً لا يذكر ، حتى

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ٢٩/١ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ .
(٢) نفس المصدر ٣٤/١ ، وأرض القرآن ٨٠/٢ ، ٨١ ، ٨٢ .
(٣) قلب جزيرة العرب ص٢٣٠ ـ ٢٣٧ .
(٤) سفر التكوين ٢٥ : ١٧ .
(٥) قلب جزيرة العرب ص٢٣٠ ـ ٢٣٧ ، وابن هشام ١١١/١ ـ ١١٣ ، وذكر ابن هشام ولاية نابت فقط من أولاد إسماعيل عليه السلام .

ضعف أمر جرهم قبيل ظهور بختنصر ، وأخذ نجم عدنان السياسي يتألق في أفق سماء مكة منذ ذلك العصر ، بدليل ما جاء بمناسبة غزو بختنصر للعرب في ذات عرق ، فإن قائد العرب في الموقعة لم يكن جرهمياً[1] .

وتفرقت بنو عدنان إلى اليمن عند غزوة بختنصر الثانية (سنة ٥٨٧ق.م) ، وذهب برمياه النبي بمعد إلى الشام ، فلما انكشف ضغط بختنصر رجع معد إلى مكة فلم يجد من جرهم إلا جرشم بن جلهمة ، فتزوج بابنته معانة فولدت له نزاراً[2] .

وساء أمر جرهم بمكة بعد ذلك ، وضاقت أحوالهم ، فظلموا الوافدين إليها ، واستحلوا مال الكعبة[3] ، الأمر الذي كان يغيظ العدنانيين ، ويثير حفيظتهم ، ولما نزلت خزاعة بمر الظهران ، ورأت نفور العدنانيين من الجراهمة استغلت ذلك ، فقامت بمعونة من بطون عدنان – وهم بنو بكر بن عبد مناف بن كنانة – بمحاربة جرهم ، حتى أجلتهم عن مكة ، واستولت على حكمها ، في أواسط القرن الثاني للميلاد .

ولما لجأت جرهم إلى الجلاء سدوا بئر زمزم ، ودرسوا موضعها ، ودفنوا فيها عدة أشياء ، قال ابن إسحق : فخرج عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي[4] بغزالي الكعبة[5] ، وبحجر الركن الأسود فدفنهما في بئر زمزم ، وانطلق هو ومن معه من جرهم إلى اليمن ، فحزنوا على ما فارقوا من أمر مكة وملكها حزناً شديداً ، وفي ذلك قال عمرو[6]:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر

ويقدر زمن إسماعيل عليه السلام بعشرين قرناً قبل الميلاد ، فتكون إقامة جرهم في مكة

(١) قلب جزيرة العرب ص٢٣٠ .
(٢) رحمة للعالمين ٤٨/٢ .
(٣) قلب جزيرة العرب ص٢٣١ .
(٤) هذا غير مضاض الجرهمي الأكبر الذي مضى ذكره في قصة إسماعيل عليه السلام .
(٥) قال المسعودي : وكانت الفرس تهدي إلى الكعبة أموالاً في صدر الزمان وجواهر ، وقد كان ساسان بن بابك أهدى غزالين من ذهب وجواهر وسيوفاً وذهباً كثيراً فقذفه (عمرو) في بئر زمزم أهـ انظر مروج الذهب ٢٠٥/١ .
(٦) ابن هشام ١١٤/١ – ١١٥ .

واحداً وعشرين قرناً تقريباً ، وحكمهم على مكة زهاء عشرين قرناً . واستبدت خزاعة بأمر مكة دون بني بكر ، إلا أنه كان إلى قبائل مضر ثلاث خلال :

الأولى : الدفع بالناس من عرفة إلى المزدلفة ، والإجازة بهم يوم النفر من منى ، وكان يلي ذلك بنو الغوث بن مرة من بطون إلياس بن مضر ، وكانوا يسمون صوفة ومعنى هذه الإجازة أن الناس كانوا لايرمون يوم النفر حتى يرمي رجل من صوفة ، ثم إذا فرغ الناس من الرمي ، وأرادوا النفر من منى أخذت صوفة بجانبي العقبة ، فلم يجز أحد حتى يمروا ، ثم يخلون سبيل الناس ، فلما انقرضت صوفة ورثهم بنو سعد بن زيد مناة من تميم .

الثانية : الإفاضة من جُمَع غداة النحر إلى منى ، وكان ذلك في بني عدوان .

الثالثة : إنساء الأشهر الحرم . وكان ذلك إلى بني تميم بن عدي من بني كنانة[1] .

واستمرت ولاية خزاعة على مكة ثلاثمائة سنة[2] . وفي وقت حكمهم انتشر العدنانيون في نجد وأطراف العراق والبحرين ، وبقي بأطراف مكة بطون من قريش وهم حلول وحرم ، وبيوتات متفرقون في قومهم من بني كنانة . وليس لهم من أمر مكة ولا البيت الحرام شيء حتى جاء قصي بن كلاب[3] .

ويذكر من أمر قصي أن أباه مات وهو في حضن أمه ، ونكحت أمه رجلاً من بني عذرة – وهو ربيعة بن حرام – فاحتملها إلى بلاده بأطراف الشام ، فلما شب قصي رجع إلى مكة ، وكان واليها إذ ذاك حليل بن حبشة من خزاعة ، فخطب قصي إلى حليل ابنته حبى ، فرغب فيه حليل وزوجه إياها[4] فلما مات حليل قامت حرب بين خزاعة وقريش أدت أخيراً إلى تغلب قصي على أمر مكة والبيت .

وهناك ثلاث روايات في بيان سبب هذه الحرب .

الأولى : أن قصياً لما انتشر ولده وكثر ماله وعظم شرفه وهلك حليل رأى أنه أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة وبني بكر ، وأن قريشاً رؤوس آل إسماعيل وصريحهم ، فكلم رجالاً من

(١) ابن هشام ١/٤٤ – ١١٩ – ١٢٠ – ١٢٢ .

(٢) ياقوت مادة « مكة » .

(٣) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١/٣٥ ، وابن هشام ١/١١٧ .

(٤) ابن هشام ١/١١٧ – ١١٨ .

قريش وبني كنانة في إخراج خزاعة وبني بكر عن مكة فأجابوه[1] .

الثانية : أن حليلاً – فيما تزعم خزاعة – أوصى قصياً بالقيام على الكعبة وبأمر مكة[2] .

الثالثة : أن حليلاً أعطى ابنته حبى ولاية البيت ، واتخذ أبا غبشان الخزاعي وكيلاً لها ، فقام أبو غبشان بسدانة الكعبة نيابة عن حبى ، فلما مات حليل اشترى قصي ولاية البيت من أبي غبشان بزق من الخمر ، ولم ترض خزاعة بهذا البيع ، وحاولوا منع قصي عن البيت ، فجمع قصي رجالاً من قريش وبني كنانة لإخراج خزاعة من مكة ، فأجابوه[3] .

وأيا ما كان ، فلما مات حليل وفعلت صوفة ما كانت تفعل أتاهم قصي بمن معه من قريش وكنانة عند العقبة فقال : نحن أولى بهذا منكم ، فقاتلوه فغلبهم قصي على ما كان بأيديهم ، وانحازت عند ذلك خزاعة وبنو بكر عن قصي ، فبدأهم قصي ، وأجمع لحربهم ، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً ، صار جمع من الفريقين فريسة له ، ثم تداعوا إلى الصلح فحكموا يعمر بن عوف أحد بني بكر ، فقضى بأن قصياً أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة ، وكل دم أصابه قصي منهم موضوع بشدخه تحت قدميه ، وما أصابت خزاعة وبنو بكر ففيه الدية ، وأن يخلى بين قصي وبين الكعبة – فسمي يعمر يومئذ الشداخ –[4] وكان استيلاء قصي على مكة والبيت في أواسط القرن الخامس للميلاد سنة ٤٤٠م[5] وبذلك صارت لقصي ، ثم لقريش السيادة التامة ، والأمر النافذ في مكة ، وصار الرئيس الديني لذلك البيت الذي كانت تفد إليه العرب من جميع أنحاء الجزيرة .

ومما فعله قصي بمكة أنه جمع قومه من منازلهم إلى مكة ، وقطعها رباعاً بين قومه ، وأنزل كل قوم من قريش منازلهم التي أصبحوا عليها ، وأقر النسأة وآل صفوان ، وعدوان ومرة بن عوف على ما كانوا عليه من المناصب ؛ لأنه كان يراه ديناً في نفسه لا ينبغي تغييره[6] .

ومن مآثر قصي أنه أسس دار الندوة بالجانب الشمالي من مسجد الكعبة ، وجعل بابها إلى المسجد ، وكانت مجمع قريش ، وفيها تفصل مهام أمورها ، ولهذه الدار فضل على قريش ؛ لأنها

(١) نفس المصدر ١/١١٧ – ١١٨ .
(٢) نفس المصدر ١/١٨٨ .
(٣) رحمة للعالمين ٢/٥٥ .
(٤) ابن هشام ١/١٢٣ – ١٢٤ .
(٥) قلب جزيرة العرب ص٢٣٢ .
(٦) ابن هشام ١/١٢٤ – ١٢٥ .

ضمنت اجتماع الكلمة وفض المشاكل بالحسنى[1] .

وكان لقصي من مظاهر الرياسة والتشريف :

(١) رياسة دار الندوة ، ففيها كانوا يتشاورون فيما نزل بهم من جسام الأمور ، ويزوجون فيها بناتهم .

(٢) اللواء ، فكانت لا تعقد راية الحرب إلا بيده .

(٣) الحجابة وهي حجابة الكعبة ، لا يفتح بابها إلا هو ، وهو الذي يلي أمر خدمتها وسدانتها .

(٤) سقاية الحاج ، وهي أنهم كانوا يملأون للحجاج حياضاً من الماء ، يحلونها بشيء من التمر والزبيب ، فيشرب الناس منها إذا وردوا مكة[2] .

(٥) رفادة الحاج ، وهي طعام كان يصنع للحاج على طريقة الضيافة ، وكان قصي فرض على قريش خرجا تخرجه في الموسم من أموالها إلى قصي ، فيصنع به طعاماً للحاج ، يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد[3] .

وكان كل ذلك لقصي ، وكان ابنه عبد مناف قد شرف وساد في حياته ، وكان عبد الدار بكره ، فقال له قصي : لأُلحقنك بالقوم وإن شرفوا عليك ، فأوصى له بما كان يليه من مصالح قريش ، فأعطاه دار الندوة والحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، وكان قصي لا يخالف ولا يرد عليه شيء صنعه ، وكان أمره في حياته وبعد موته كالدين المتبع ، فلما هلك أقام بنوه أمره لا نزاع بينهم ولكن لما هلك عبد مناف نافس أبناؤه بني عمهم عبد الدار في هذه المناصب ، وافترقت قريش فرقتين ، وكاد يكون بينهم قتال ، إلا أنهم تداعوا إلى الصلح ، واقتسموا هذه المناصب ، فصارت السقاية والرفادة إلى بني عبد مناف ، وبقيت دار الندوة واللواء والحجابة بيد بني عبد الدار ، ثم حكم بنو عبد مناف القرعة فيما أصابهم فخرجت لهاشم بن عبد مناف ، فكان هو الذي يلي السقاية والرفادة طول حياته ، فلما مات خلفه أخوه المطلب بن عبد مناف ، وولي بعده عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف جد رسول الله ﷺ ، وبعده أبناؤه حتى جاء الإسلام

---

(١) ابن هشام ١/١٢٥ ، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١/٣٦ ، وأخبار الكرام ص١٥٢ .

(٢) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١/٣٦ .

(٣) ابن هشام ١/١٣٠ .

والولاية إلى العباس بن عبد المطلب[1] .

وكانت لقريش مناصب سوى ذلك وزعوها فيما بينهم ، وكونوا بها دويلة – بل بتعبير أصح : شبه دويلة ديمقراطية . وكانت لها من الدوائر والتشكيلات الحكومية ما يشبه في عصرنا هذا دوائر البرلمان ومجالسها ، وهاك لوحة من تلك المناصب :

(١) الإيسار ، أي تولية قداح الأصنام للاستقسام ، كان ذلك في بني جمح .

(٢) تحجير الأموال ، أي نظم القربات والنذور التي تهدى إلى الأصنام ، وكذلك فصل الخصومات والمرافقات . كان ذلك في بني سهم .

(٣) الشورى ، كانت في بني أسد .

(٤) الأشناق ، أي نظم الديات والغرامات ، كان ذلك في بني تيم .

(٥) العقاب ، أي حمل اللواء القومي ، كانت ذلك في بني أمية .

(٦) القبة ، أي نظم المعسكر ، وكذلك قيادة الخيل ، كانت في بني مخزوم .

(٧) السفارة ، كانت في بني عدي[2] .

الحكم في سائر العرب:

قد سبق لنا أن ذكرنا هجرات القبائل القحطانية والعدنانية ، وأن البلاد العربية اقتسمت فيما بينها ، فما كان من هذه القبائل بالقرب من الحيرة كانت تبعاً لملك العرب بالحيرة ، وما كان منها في بادية الشام كانت تبعاً للغساسنة ، إلا أن هذه التبعية كانت اسمية لا فعلية . وأما ما كان منها في البوادي في داخل الجزيرة فكانت حرة مطلقة .

وفي الحقيقة كان لهذه القبائل رؤساء تسودهم القبيلة ، وكانت القبيلة حكومة مصغرة أساس كيانها السياسي الوحدة العصبية ، والمنافع المتبادلة في حماية الأرض ودفع العدوان عنها .

وكانت درجة رؤساء القبائل في قومهم كدرجة الملوك ، فكانت القبيلة تبعاً لرأي سيدها في السلم والحرب ، لا تتأخر عنه بحال ، وكان له من الحكم والاستبداد بالرأي ما يكون لدكتاتور

(١) ابن هشام ١/١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٢) تاريخ أرض القرآن ٢/١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ .

قوي ، حتى كان بعضهم إذا غضب غضب له ألوف من السيوف لا تسأله فيما غضب ، إلا أن المنافسة في السيادة بين أبناء العم كانت تدعوهم إلى المصانعة بالناس ، من بذل الندى ، وإكرام الضيف ، والكرم ، والحلم وإظهار الشجاعة ، والدفاع عن الغير ؛ حتى يكسبوا المحامد في أعين الناس ، ولا سيما الشعراء الذين كانوا لسان القبيلة في ذلك الزمان ، وحتى تسمو درجتهم عن مستوى المنافسين .

وكان للسادة والرؤساء حقوق خاصة ، فكانوا يأخذون من الغنيمة المرباع والصفي والنشيطة والفضول ، يقول الشاعر :

لك المرباع فينا والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

والمرباع : ربع الغنيمة ، والصفي : ما يصفيه الرئيس لنفسه قبل القسمة ، والنشيطة : ما أصاب الرئيس في الطريق قبل أن يصل إلى بيضة القوم . والفضول : ما فضل من القسمة مما لا تصح قسمته على عدد الغزاة ، كالبعير والفرس ونحوهما .

الحالة السياسية:

قد ذكرنا حكام العرب ، والآن آن لنا أن نذكر جملة من أحوالهم السياسية ، فالأقطار الثلاثة التي كانت مجاورة للأجانب كانت حالتها السياسية في تضعضع وانحطاط لا مزيد عليه ، فقد كان الناس بين سادة وعبيد ، أو حكام ومحكومين ، فالسادة – ولا سيما الأجانب – لهم كل الغنم ، والعبيد عليهم كل الغرم ، وبعبارة أوضح إن الرعايا كانت بمثابة مزرعة تورد المحصولات إلى الحكومات ، فتستخدمها في ملذاتها وشهواتها ، ورغائبها ، وجورها ، وعدوانها . أما الناس فهم في عمايتهم يتخبطون ، والظلم ينحط عليهم من كل جانب وما في استطاعتهم التذمر والشكوى ، بل هم يسامون الخسف ، والجور ، والعذاب ألواناً ساكتين ، فقد كان الحكم استبدادياً ، والحقوق ضائعة مهدورة ، والقبائل المجاورة لهذه الأقطار مذبذبون تتقاذفهم الأهواء والأغراض ، مرة يدخلون في أهل العراق ، ومرة يدخلون في أهل الشام . وكانت أحوال القبائل داخل الجزيرة مفككة الأوصال ، تغلب عليها المنازعات القبلية والاختلافات العنصرية والدينية حتى قال ناطقهم :

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت ، وإن ترشد غزية أرشد

ولم يكن لهم ملك يدعم استقلالهم ، أو مرجع يرجعون إليه ، ويعتمدون عليه وقت الشدائد .

وأما حكومة الحجاز ؛ فقد كانت تنظر إليها العرب نظرة تقدير واحترام ، ويرونها قادة وسدنة المركز الديني ، وكانت تلك الحكومة في الحقيقة خليطاً من الصدارة الدنيوية والحكومية والزعامة الدينية ، حكمت بين العرب باسم الزعامة الدينية ، وحكمت في الحرم وما والاه بصفتها حكومة تشرف على مصالح الوافدين إلى البيت ، وتنفذ حكم شريعة إبراهيم ، وكانت لها من الدوائر والتشكيلات ما يشابه دوائر البرلمان – كما أسلفنا – ولكن هذه الحكومة كانت ضعيفة لا تقدر على حمل العبء كما وضح يوم غزو الأحباش .

ديانات العرب

كان معظم العرب اتبعوا دعوة إسماعيل – عليه السلام – حين دعاهم إلى دين أبيه إبراهيم – عليه السلام – فكانت تعبد الله وتوحده وتدين بدينه ، حتى طال عليهم الأمد ونسوا حظاً مما ذكروا به ، إلا أنهم بقي فيهم التوحيد وعدة شعائر من دين إبراهيم ، حتى جاء عمرو بن لحي رئيس خزاعة ، وكان قد نشأ على أمر عظيم من المعروف والصدقة والحرص على أمور الدين ، فأحبه الناس ، ودانوا له ظناً منهم أنه من أكابر العلماء وأفاضل الأولياء ، ثم إنه سافر إلى الشام ، فرآهم يعبدون الأوثان ، فاستحسن ذلك وظنه حقاً ، لأن الشام محل الرسل والكتب ، فقدم معه بهبل وجعله في جوف الكعبة ، ودعا أهل مكة إلى الشرك بالله ، فأجابوه . ثم لم يلبث أهل الحجاز أن تبعوا أهل مكة ، لأنهم ولاة البيت وأهل الحرم[1] .

ومن أقدم أصنامهم مناة ، كانت بالمشلل على ساحل البحر الأحمر بالقرب من قديد ، ثم اتخذوا اللات في الطائف ، ثم اتخذوا العزى بوادي نخلة ، هذه الثلاث أكبر أوثانهم ، ثم كثر الشرك ، وكثرت الأوثان في كل بقعة من الحجاز ، ويذكر أن عمرو بن لحي كان له رئي من الجن ، فأخبره بأن أصنام قوم نوح – وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً – مدفونة بجدة فأتاها فاستثارها ، ثم أوردها إلى تهامة ، فلما جاء الحج دفعها إلى القبائل[2]، فذهبت بها إلى أوطانها ، حتى صار لكل قبيلة ثم في كل بيت صنم . وقد ملأوا المسجد الحرام بالأصنام ، ولما فتح رسول الله ﷺ مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنماً ، فجعل يطعنها حتى تساقطت ، ثم أمر بها فأخرجت من المسجد وحرقت[3].

(١) مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص١٢ .

(٢) صحيح البخاري ١/٢٢٢ .

(٣) مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص١٣ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ .

وهكذا صار الشرك وعبادة الأصنام أكبر مظهر من مظاهر دين أهل الجاهلية ، الذين كانوا يزعمون أنهم على دين إبراهيم .

وكانت لهم تقاليد ومراسم في عبادة الأصنام ، ابتدع أكثرها عمرو بن لحي ، وكانوا يظنون أن ما أحدثه عمرو بن لحي بدعة حسنة ، وليس بتغيير لدين إبراهيم فكان من مراسم عبادتهم للأصنام أنهم :

(١) كانوا يعكفون عليها ، ويلتجئون إليها .. ويهتفون بها ، ويستغيثونها في الشدائد ، ويدعونها لحاجاتهم ، معتقدين أنها تشفع عند الله ، وتحقق لهم ما يريدون.

(٢) وكانوا يحجون إليها ويطوفون حولها ، ويتذللون عندها ، ويسجدون لها .

(٣) وكانوا يتقربون إليها بأنواع من القرابين ، فكانوا يذبحون وينحرون لها وبأسمائها .

وهذان النوعان من الذبح ذكرهما الله تعالى في قوله ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ (٥ : ٣) وفي قوله ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ (٦ : ١٢١) .

(٤) وكان من أنواع التقرب أنهم كانوا يخصون للأصنام شيئاً من مآكلهم ومشاربهم حسبما يبدو لهم ، وكذلك يخصون لها نصيباً من حرثهم وأنعامهم . ومن الطرائف أنهم كانوا يخصون من ذلك جزءاً لله أيضاً ، وكانت عندهم أسباب كثيراً ما كانوا ينقلون لأجلها إلى الأصنام ما كان لله، ولكن لم يكونوا ينقلون إلى الله ما كان لأصنامهم بحال. قال تعالى :﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٦ : ١٣٦) .

(٥) وكان من أنواع التقرب إلى الأصنام النذر في الحرث والأنعام ، قال تعالى :﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ (٦ : ١٣٨) .

(٦) وكانت منها البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي . قال ابن إسحاق : البحيرة بنت السائبة ، هي الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهن ذكر سيبت ، فلم يركب ظهرها ، ولم يجز وبرها ، ولم يشرب لبنها إلا ضيف ، فما نتجت بعد ذلك من أنثى شقت أذنها ، ثم خلي سبيلها مع أمها ، فلم يركب ظهرها ، ولم يجز وبرها ، ولم يشرب لبنها إلا ضيف ، كما فعل

بأمها . فهي البحيرة بنت السائبة . والوصيلة : الشاة إذا أتأمت عشر إناث متتابعات في خمسة أبطن ليس بينهن ذكر جعلت وصيلة . قالوا : قد وصلت ، فكان ما ولد بعد ذلك للذكور منهم دون إناثهم إلا أن يموت شيء فيشترك في أكله ذكورهم وإناثهم . والحامي : الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر حمى ظهره ، فلم يركب ، ولم يجز وبره ، وخلي في إبله يضرب فيها ، لا ينتفع منه بغير ذلك ، وفي ذلك أنزل الله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ (٥ : ١٠٣) وأنزل : ﴿ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ ﴾ (٦ : ١٣٩) وقيل في تفسير هذه الأنعام غير ذلك[١] .

وقد صرح سعيد بن المسيب أن هذه الأنعام كانت لطواغيتهم[٢] وفي الصحيح مرفوعاً : أن عمرو بن لحي أول من سيب السوائب[٣] .

كانت العرب تفعل كل ذلك بأصنامهم ، معتقدين أنها تقربهم إلى الله وتوصلهم إليه ، وتشفع لديه كما في القرآن : ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ (٣٩ : ٣) ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ ﴾ (١٠ : ١٨) .

وكانت العرب تستقسم بالأزلام ، والزلم : القدح الذي لا ريش عليه ، وكانت الأزلام ثلاثة أنواع : نوع فيه « نعم » و« لا » كانوا يستقسمون بها فيما يريدون من العمل من نحو السفر والنكاح وأمثالهما . فإن خرج « نعم » عملوا به وإن خرج « لا » أخروه عامه ذلك حتى يأتوه مرة أخرى ، ونوع فيه المياه والدية ، ونوع فيه « منكم » أو « من غيركم » أو « ملصق » فكانوا إذا شكوا في نسب أحدهم ذهبوا به إلى هبل ، وبمائة جزور ، فأعطوها صاحب القداح . فإن خرج « منكم » كان منهم وسيطاً ، وإن خرج عليه « من غيركم » كان حليفاً ، وإن خرج عليه « ملصق » كان على منزلته فيهم ، لا نسب ولا حلف[٤] .

---

(١) ابن هشام ٨٩/١ ، ٩٠ .

(٢) صحيح البخاري ٤٩٩/١ .

(٣) نفس المصدر .

(٤) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ٥٦/١ ، وابن هشام ١٥٢/١ ، ١٥٣ .

ويقرب من هذا الميسر والقداح ، وهو ضرب من ضروب القمار ، وكانوا يقتسمون به لحم الجزور التي يذبحونها بحسب القداح .

وكانوا يؤمنون بأخبار الكهنة والعرافين والمنجمين ، والكاهن : هو من يتعاطى الإخبار عن الكوائن في المستقبل ، ويدعي معرفة الأسرار ، ومن الكهنة من يزعم أن له تابعاً من الجن يلقي عليه الأخبار ، ومنهم من يدعي إدراك الغيب بفهم أعطيه ، ومنهم من يدعي معرفة الأمور بمقدمات وأسباب يستدل بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله ، وهذا القسم يسمى عرافاً ، كمن يدعي معرفة المسروق ومكان السرقة والضالة ونحوهما . والمنجّم : من ينظر في النجوم أي الكواكب ، ويحسب سيرها ومواقيتها ، ليعلم بها أحوال العالم وحوادثه التي تقع في المستقبل[1] والتصديق بأخبار المنجمين هو في الحقيقة إيمان بالنجوم ، وكان من إيمانهم بالنجوم الإيمان بالأنواء ، فكانوا يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا[2] .

وكانت فيهم الطيرة (بكسر ففتح) وهي التشاؤم بالشيء ، وأصله أنهم كانوا يأتون الطير أو الظبي فينفرونه ، فإن أخذ ذات اليمين مضوا إلى ما قصدوا ، وعدوه حسناً ، وإن أخذ ذات الشمال انتهوا عن ذلك وتشاءموا ، وكانوا يتشاءمون كذلك إن عرض الطير أو الحيوان في طريقهم .

ويقرب من هذا تعليقهم كعب الأرنب ، والتشاؤم ببعض الأيام والشهور والحيوانات والدور والنساء ، والاعتقاد بالعدوى والهامة ، فكانوا يعتقدون أن المقتول لا يسكن جأشه ما لم يؤخذ بثأره ، وتصير روحه هامة أي بومة تطير في الفلوات وتقول : صدى صدى أو اسقوني استقوني ، فإذا أخذ بثأره سكن واستراح[3] .

كان أهل الجاهلية على ذلك وفيهم بقايا من دين إبراهيم ولم يتركوه كله ، مثل تعظيم البيت والطواف به ، والحج والعمرة ، والوقوف بعرفة ، والمزدلفة وإهداء البدن ، نعم ابتدعوا في ذلك بدعا .

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٢/٢ ، ٣ .

(٢) انظر صحيح مسلم مع شرحه للنووي ، باب بيان كفر من قال : مطرنا بالنوء ، من كتاب الإيمان ٥٩/١ .

(٣) انظر صحيح البخاري ٨٥١/٢ ، ٨٥٧ مع حواشيه للشيخ أحمد علي السهارنفوري .

منها أن قريشاً كانوا يقولون : نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم ، وولاة البيت وقاطنو مكة ، وليس لأحد من العرب مثل حقنا ومنزلتنا – وكانوا يسمون أنفسهم الحمس – فلا ينبغي لنا أن نخرج من الحرم إلى الحل ، فكانوا لا يقفون بعرفة ، ولا يفيضون منها ، وإنما كانوا يفيضون من المزدلفة وفيهم أنزل : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ (٢ : ١٩٩)[١] .

ومنها أنهم قالوا : لا ينبغي للحُمْس أن يأتَقِطُوا ولا يسلئوا السمن ، وهم حرم ، ولا يدخلوا بيتاً من شعر ، ولا يستظلوا إن استظلوا إلا في بيوت الأدم ما داموا حرماً[٢] .

ومنها أنهم قالوا : لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به من الحل إلى الحرم إذا جاءوا حجاجاً أو عماراً[٣] .

ومنها أنهم أمروا أهل الحل أن لا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحمس ، فإن لم يجدوا شيئاً فكان الرجال يطوفون عراة ، وكانت المرأة تضع ثيابها كلها إلا درعاً مفرجاً ثم تطوف فيه وتقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحله

وأنزل الله في ذلك : ﴿ يا بني ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ (٧ : ٣١) ، فإن تكرم أحد من الرجل والمرأة فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحل ألقاها بعد الطواف ، ولا ينتفع بها هؤلاء ولا أحد غيره[٤] .

ومنها أنهم كانوا لا يأتون بيوتهم من أبوابها في حال الإحرام ، بل كانوا ينقبون في ظهور البيوت نقباً يدخلون ويخرجون منه ، وكانوا يحسبون ذلك الجفاء براً وقد منعه القرآن (٢ : ١٨٩) .

كانت هذه الديانة – ديانة الشرك وعبادة الأوثان ، والاعتقاد بالأوهام والخرافات – ديانة معظم العرب ، وقد وجدت اليهودية ، والمسيحية ، والمجوسية والصابئية سبيلاً للدخول في ربوع العرب .

(١) ابن هشام ١٩٩/١ ، صحيح البخاري ٢٢٦/١ .
(٢) نفس المصدر الأول ٢٠٢/١ .
(٣) ابن هشام ٢٠٢/١ .
(٤) ابن هشام ٢٠٢/١ ، ٢٠٣ وصحيح البخاري ٢٢٦/١ .

وللهود دوران – على الأقل – مثلوهما في جزيرة العرب :

الأول : هجرتهم في عهد الفتوح البابلية والأشورية في فلسطين ، فقد نشأ عن الضغط على اليهود ، وعن تخريب بلادهم وتدمير هيكلهم على يد الملك بختنصر سنة ٥٨٧ ق.م وسبي أكثرهم إلى بابل أن قسما منهم هجر البلاد الفلسطينية إلى الحجاز ، وتوطن في ربوعها الشمالية[١] .

الدور الثاني : يبدأ من احتلال الرومان لفلسطين بقيادة بتطس الروماني سنة ٧٠م ، فقد نشأ عن ضغط الرومان على اليهود ، وعن تخريب الهيكل وتدميره أن قبائل عديدة من اليهود رحلت إلى الحجاز ، واستقرت في يثرب وخيبر وتيماء ، وأنشأت فيها القرى والآطام والقلاع ، وانتشرت الديانة اليهودية بين قسم من العرب عن طريق هؤلاء المهاجرين ، وأصبح لها شأن يذكر في الحوادث السياسية التي سبقت ظهور الإسلام ، والتي حدثت في صدره . وحينما جاء الإسلام كانت القبائل اليهودية المشهورة هي : خيبر والنضير والمصطلق وقريظة وقينقاع، وذكر السمهودي في وفاء الوفا (ص١١٦) أن عدد القبائل اليهودية يزيد على عشرين[٢] .

ودخلت اليهودية في اليمن من قبل تبان أسعد أبي كرب ، فإنه ذهب مقاتلاً إلى يثرب واعتنق هناك اليهودية وجاء بحبرين من بني قريظة إلى اليمن ، فأخذت اليهودية إلى التوسع والانتشار فيها ، ولما ولي اليمن بعده ابنه يوسف ذو نواس هجم على المسيحيين من أهل نجران ودعاهم إلى اعتناق اليهودية ، فلما أبوا خدّ لهم الأخدود ، وأحرقهم بالنار ، ولم يفرق بين الرجل والمرأة والأطفال الصغار والشيوخ الكبار ، ويقال إن عدد المقتولين ما بين عشرين ألفاً إلى أربعين ألفاً ، وقع ذلك في أكتوبر سنة ٥٢٣م[٣] . وقد أورد القرآن جزءاً من هذه القصة في سورة البروج .

أما الديانة النصرانية فقد جاءت إلى بلاد العرب عن طريق احتلال الحبشة والرومان ، وكان أول احتلال الحبشة لليمن سنة ٣٤٠م ، واستمر إلى سنة ٣٧٨م[٤] ، وفي ذلك الزمان دخل التبشير المسيحي في ربوع اليمن ، وبالقرب من هذا الزمان دخل رجل زاهد مستجاب الدعوات

---

(١) قلب جزيرة العرب ص١٥١ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) تفهم القرآن ٦/٢٩٧ ، ٢٩٨ ، وابن هشام ١/٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٧ ، ٣١ ، ٣٥ ، ٣٦ .

(٤) تفهم القرآن ٦/٢٩٧ .

وصاحب كرامات – وكان يسمى فيميون – إلى نجران ، ودعاهم إلى الدين المسيحي ، ورأى أهل نجران من أمارات صدقه وصدق دينه ما لبوا لأجله المسيحية واعتنقوها[1] .

ولما احتلت الأحباش اليمن كرد فعل لما أتاه ذو نواس ، وتمكن أبرهة من حكومتها ؛ أخذ ينشر الديانة المسيحية بأوفر نشاط ، وأوسع نطاق ، حتى بلغ من نشاطه أنه بنى كنيسة باليمن كانت تسمى الكعبة اليمانية ، وأراد أن يصرف حج العرب إليها ، ويهدم بيت الله الذي بمكة ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى .

وقد اعتنق النصرانية العرب الغساسنة وقبائل تغلب وطيء وغيرهما لمجاورة الرومان ، بل قد اعتنقها بعض ملوك الحيرة .

أما المجوسية فكان معظمها في العرب الذين كانوا بجوار الفرس ، فكانت في عراق العرب وفي البحرين – الأحساء – وهجر وما جاورها من منطقة سواحل الخليج العربي ، ودان لها رجال من اليمن في زمن الاحتلال الفارسي .

أما الصابئية فقد دلت الحفريات والتنقيبات في بلاد العراق وغيرها أنها كانت ديانة قوم إبراهيم الكلدانيين ، وقد دان بها كثير من أهل الشام ، وأهل اليمن في غابر الزمان ، وبعد تتابع الديانات الجديدة من اليهودية والنصرانية تضعضع بنيان الصابئية وخمد نشاطها ، ولكن لم يزل في الناس بقايا من أهل هذه الديانة مختلطين مع المجوس ، أو مجاورين لهم ، في عراق العرب ، وعلى شواطىء الخليج العربي[2] .

الحالة الدينية:

كانت هذه الديانات هي ديانات العرب حين جاء الإسلام ، وقد أصاب هذه الديانات الانحلال والبوار ، فالمشركون الذين كانوا يدعون أنهم على دين إبراهيم كانوا بعيدين عن أوامر ونواهي شريعة إبراهيم ، مهملين ما أتت به من مكارم الأخلاق . فكثرت معاصيهم ، ونشأ فيهم على توالي الزمان ما ينشأ في الوثنيين من عادات وتقاليد تجري مجرى الخرافات الدينية ، وأثرت في الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية تأثيراً بالغاً جداً .

(١) انظر في ذلك مفصلاً ابن هشام ١/٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ .
(٢) تاريخ أرض القرآن ٢/١٩٣ إلى ٢٠٨ .

وأما اليهودية فقد انقلبت رياء وتحكماً، وصار رؤساؤها أرباباً من دون الله، يتحكمون في الناس ويحاسبونهم حتى على خطرات النفس وهمسات الشفاه ، وجعلوا همهم الحظوة بالمال والرياسة ، وإن ضاع الدين وانتشر الإلحاد والكفر والتهاون بالتعاليم التي حض الله عليها وأمر كل فرد بتقديسها .

وأما النصرانية فقد عادت وثنية عسرة الفهم ، وأوجدت خلطاً عجيباً بين الله والإنسان ، ولم يكن لها في نفوس العرب المتدينين بهذا الدين تأثير حقيقي ، لبعد تعاليمها عن طراز المعيشة التي ألفوها ، ولم يكونوا يستطيعون الابتعاد عنها .

وأما سائر أديان العرب فكانت أحوال أهلها كأحوال المشركين ، فقد تشابهت قلوبهم ، وتواردت عقائدهم ، وتوافقت تقاليدهم وعوائدهم .

صور من المجتمع العربي الجاهلي

بعد البحث عن سياسة الجزيرة وأديانها ؛ بقي لنا أن نتكلم حول الأحوال الاجتماعية ، والاقتصادية ، والخلقية ، وفيما يلي بيانها بإيجاز :

الحالة الاجتماعية:

كانت في العرب أوساط متنوعة ، تختلف أحوال بعضها عن بعض ، فكانت علاقة الرجل مع أهله في الأشراف على درجة كبيرة من الرقي والتقدم ، وكان لها من حرية الإرادة ونفاذ القول القسط الأوفر ، وكانت محترمة مصونة تسل دونها السيوف ، وتراق الدماء ، وكان الرجل إذا أراد أن يمتدح بما له في نظر العرب المقام السامي من الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب في أكثر أوقاته إلا المرأة ، وربما كانت المرأة إذا شاءت جمعت القبائل للسلام ، وإن شاءت أشعلت بينهم نار الحرب والقتال ، ومع هذا كله فقد كان الرجل يعتبر بلا نزاع رئيس الأسرة ، وصاحب الكلمة فيها ، وكان ارتباط الرجل بالمرأة بعقد الزواج تحت إشراف أوليائها ولم يكن من حقها أن تفتات عليهم .

بينما كانت هذه حال الأشراف ، كان هناك في الأوساط الأخرى أنواع من الاختلاط بين الرجل والمرأة ، لا نستطيع أن نعبر عنه إلا بالدعارة والمجون والسفاح والفاحشة ، روى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء : فكان منها نكاح الناس اليوم ، يخطب الرجل إلى الرجل وليته فيصدقها ثم ينكحها ، ونكاح آخر : كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه ، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إن أحب ، وإنما

يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد ، فكان هذا النكاح يسمى نكاح الاستبضاع ، ونكاح آخر : يجتمع الرهط دون العشرة . فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها . فإذا حملت ، ووضعت ومرت ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها ، فتقول لهم : قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت ، وهو ابنك يا فلان ، فتسمي من أحبت منهم باسمه فيلحق به ولدها ونكاح رابع : يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها . وهن البغايا ، كن ينصبن على أبوابهن رايات ، تكن علماً لمن أرادهن دخل عليهن ، فإذا حملت فوضعت حملها جمعوا لها ، ودعوا لهم القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاطه ودعي ابنه ، لا يمتنع من ذلك ، فلما بعث الله محمداً ﷺ هدم نكاح أهل الجاهلية كله إلا نكاح الإسلام اليوم[1] .

وكانت عندهم اجتماعات بين الرجل والمرأة تعقدها شفار السيوف ، وأسنة الرماح ، فكان المتغلب في حروب القبائل يسبي نساء المقهور فيستحلها ، ولكن الأولاد الذين تكون هذه أمهم يلحقهم العار مدة حياتهم .

وكان من المعروف في أهل الجاهلية أنهم كانوا يعددون بين الزوجات من غير حد معروف ينتهى إليه ، وكانوا يجمعون بين الأختين ، وكانوا يتزوجون بزوجة آبائهم إذا طلقوها أو ماتوا عنها (سورة النساء ٢٢ ، ٢٣) وكان الطلاق بيد الرجال لا إلى حد معين[2] .

وكانت فاحشة الزنا سائدة في جميع الأوساط ، لا نستطيع أن نخص منها وسطاً دون وسط أو صنفاً دون صنف ، إلا أفراداً من الرجال والنساء ممن كان تعاظم نفوسهم يأبى الوقوع في هذه الرذيلة ، وكانت الحرائر أحسن حالاً من الإماء والطامة الكبرى هي الإماء ، ويبدو أن الأغلبية الساحقة من أهل الجاهلية لم تكن تحس بعار في الانتساب إلى هذه الفاحشة ، روى أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قام رجل فقال : يا رسول الله إن فلاناً ابني ، عاهرت بأمة ، في الجاهلية ، فقال رسول الله ﷺ : « لا دعوة في الإسلام ، ذهب أمر الجاهلية . الولد للفراش وللعاهر الحجر » ، وقصة اختصام سعد بن أبي وقاص وعبد بن زمعة في ابن أمة زمعة

---

(١) أبو داود ، كتاب النكاح ، باب وجوه النكاح التي كان يتناكح بها أهل الجاهلية .

(٢) نفس المصدر باب نسخ المراجعة بعد التطليقات الثلاث . وهذا الذي ذكره المفسرون في سبب نزول قوله تعالى ﴿ الطلاق مرتان ﴾ .

– وهو عبد الرحمن بن زمعة – معروفة[1] .

وكانت علاقة الرجل مع أولاده على أنواع شتى فمنهم من يقول :

إنمـــا أولادنـــا بيـــنـــنـــا أكبـــادنـــا تمشـــي عـلى الأرض

ومنهم من كان يئد البنات خشية العار والإنفاق ، ويقتل الأولاد خشية الفقر والإملاق (القرآن ٦ – ١٥١ . ١٦ – ٥٨ ، ٥٩ . ١٧ – ٣١ . ٨١ – ٨) ولكن لا يمكننا أن نعد هذا من الأخلاق المنتشرة السائدة ، فقد كانوا أشد الناس احتياجاً إلى البنين ، ليتقوا بهم العدو .

أما معاملة الرجل مع أخيه وأبناء عمه وعشيرته فقد كانت موطدة قوية ، فقد كانوا يحيون للعصبية القبلية ، ويموتون لها . وكانت روح الاجتماع سائدة بين القبيلة الواحدة تزيدها العصبية ، وكان أساس النظام الاجتماعي هو العصبية الجنسية والرحم ، وكانوا يسيرون على المثل السائر « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » على المعنى الحقيقي ، من غير التعديل الذي جاء به الإسلام من أن نصر الظالم كفه عن ظلمه ، إلا أن التنافس في الشرف والسؤدد كثيراً ماكان يفضي إلى الحروب بين القبائل التي كان يجمعها أب واحد ، كما نرى ذلك بين الأوس والخزرج ، وعبس وذبيان ، وبكر وتغلب وغيرها .

أما العلاقة بين القبائل المختلفة فقد كانت مفككة الأوصال تماماً ، وكانت قواهم متفانية في الحروب . إلا أن الرهبة والوجل من بعض التقاليد والعادات المشتركة بين الدين والخرافة ربما كان يخفف من حدتها وصرامتها وفي بعض الحالات كانت الموالاة والحلف والتبعية تفضي إلى اجتماع القبائل المتغايرة ، وكانت الأشهر الحرم رحمة وعوناً لهم على حياتهم وحصول معايشهم .

وقصارى الكلام أن الحالة الاجتماعية كانت في الحضيض من الضعف والعماية فالجهل ضارب أطنابه ، والخرافات لها جولة وصولة والناس يعيشون كالأنعام ، والمرأة تباع وتشترى وتعامل كالجمادات أحياناً ، والعلاقة بين الأمة واهية مبتوتة ، وما كان من الحكومات فجل همّها امتلاء الخزائن من رعيتها ، أو جر الحروب على مناوئيها .

الحالة الاقتصادية:

أما الحالة الاقتصادية ، فتبعت الحالة الاجتماعية ، ويتضح ذلك إذا نظرنا في طرق معايش

(١) أبو داود باب الولد للفراش .

العرب . فالتجارة كانت أكبر وسيلة للحصول على حوائج الحياة ، والجولة التجارية لا تتيسر إلا إذا ساد الأمن والسلام ، وكان ذلك مفقوداً في جزيرة العرب إلا في الأشهر الحرم ، وهذه هي الشهور التي كانت تعقد فيها أسواق العرب الشهيرة من عكاظ وذي المجاز ومجنة وغيرها .

وأما الصناعات فكانوا أبعد الأمم عنها ، ومعظم الصناعات التي كانت توجد في العرب من الحياكة والدباغة وغيرها كانت في أهل اليمن والحيرة ، ومشارف الشام ، نعم كانت في داخل الجزيرة الزراعة ، والحرث ، واقتناء الأنعام ، وكانت نساء العرب كافة يشتغلن بالغزل ، لكن كانت الأمتعة عرضة للحروب ، وكان الفقر والجوع والعري عاماً في المجتمع .

الأخلاق:

لا ننكر أن أهل الجاهلية كانت فيهم دنايا ورذائل وأمور ينكرها العقل السليم ، ويأباها الوجدان ، ولكن كانت فيهم من الأخلاق الفاضلة المحمودة ما يروع الإنسان ، ويفضي به إلى الدهشة والعجب ، فمن تلك الأخلاق .

(١) الكرم ، وكانوا يتبارون في ذلك ويفتخرون به ، وقد استنفدوا فيه نصف أشعارهم ، بين ممتدح به ومثن على غيره ، كان الرجل يأتيه الضيف في شدة البرد والجوع ، وليس عنده من المال إلا ناقته التي هي حياته وحياة أسرته ، فتأخذه هزة الكرم ، فيقوم إليها ، ويذبحها لضيفه ، ومن آثار كرمهم أنهم كانوا يتحملون الديات الهائلة والحمالات المدهشة ، يكفون بذلك سفك الدماء ، وضياع الإنسان ، ويمتدحون بها مفتخرين على غيرهم من الرؤساء والسادات .

وكان من نتائج كرمهم أنهم كانوا يتمدحون بشرب الخمور ، لا لأنها مفخرة في ذاتها ، بل لأنها سبيل من سبل الكرم ، ومما يسهل السرف على النفس ، ولأجل ذلك كانوا يسمون شجر العنب بالكرم ، وخمره ببنت الكرم . وإذا نظرت إلى دواوين أشعار الجاهلية تجد ذلك بابا من أبواب المديح والفخر ، يقول عنترة بن شداد العبسي في معلقته :

ولقد شربت من المدامة بعدما ... ركد الهواجر بالمشوف المعلم

بزجاجة صفراء ذات أسرة ... قُرنت بأزهر بالشمال مفدم

فإذا شربت فإنني مستهلك ... مالي ، وعرضي وافر لم يكلم

وإذا صحوت فما أقصر عن ندى ... وكما علمت شمائلي وتكرمي

ومن نتائج كرمهم اشتغالهم بالميسر ، فإنهم كانوا يرون أنه سبيل من سبل الكرم ، لأنهم كانوا يطعمون المساكين ماربحوه ، أو ما كان يفضل عن سهام الرابحين ، ولذلك ترى القرآن لا ينكر نفع الخمر والميسر وإنما يقول ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ (٢ : ٢١٩) .

(٢) ومن تلك الأخلاق الوفاء بالعهد ، فقد كان العهد عندهم ديناً يتمسكون به ، ويستهينون في سبيله قتل أولادهم ، وتخريب ديارهم ، وتكفي في معرفة ذلك قصة هانىء بن مسعود الشيباني ، والسموأل بن عاديا ، وحاجب بن زرارة التميمي .

(٣) ومنها عزة النفس وإباء عن قبول الخسف والضيم ، وكان من نتائج هذا فرط الشجاعة ، وشدة الغيرة ، وسرعة الانفعال ، فكانوا لا يسمعون كلمة يشمون منها رائحة الذل والهوان إلا قاموا إلى السيف والسنان ، وأثاروا الحروب العوان ، وكانوا لا يبالون بتضحية أنفسهم في هذا السبيل .

(٤) ومنها المضي في العزائم ، فإذا عزموا على شيء يرون فيه المجد ، والافتخار لا يصرفهم عنه صارف ، بل كانوا يخاطرون بأنفسهم في سبيله .

(٥) ومنها الحلم ، والأناة ، والتؤدة ، كانوا يتمدحون بها إلا أنها كانت فيهم عزيزة الوجود ، لفرط شجاعتهم ، وسرعة إقدامهم على القتال .

(٦) ومنها السذاجة البدوية ، وعدم التلوث بلوثات الحضارة ، ومكائدها ، وكان من نتائجه الصدق والأمانة ، والنفور عن الخداع والغدر .

نرى أن هذه الأخلاق الثمينة – مع ما كان لجزيرة العرب من الموقع الجغرافي بالنسبة إلى العالم – كانت سبباً في اختيارهم لحمل عبء الرسالة العامة ، وقيادة الأمة الإنسانية والمجتمع البشري ؛ لأن هذه الأخلاق وإن كان بعضها يفضي إلى الشر ، ويجلب الحوادث المؤلمة ، إلا أنها كانت في نفسها أخلاقاً ثمينة ، تدر المنافع العامة للمجتمع البشري بعد شيء من الإصلاح ، وهذا الذي فعله الإسلام .

ولعل أغلى ما عندهم من هذه الأخلاق وأعظمها نفعاً بعد الوفاء بالعهد هو عزة النفس والمضي في العزائم ، إذ لا يمكن قمع الشر والفساد ، وإقامة نظام العدل والخير ؛ إلا بهذه القوة القاهرة ، وبهذا العزم الصميم .

ولهم أخلاق فاضلة أخرى دون هذه التي ذكرناها وليس قصدنا استقصاءها .

نسب النبي - ﷺ - وأسرته

نسب النبي - ﷺ - :

لنسب النبي ﷺ ثلاثة أجزاء : جزء اتفق على صحته أهل السير والأنساب وهو إلى عدنان ، وجزء اختلفوا فيه ما بين متوقف فيه وقائل به ، وهو ما فوق عدنان إلى إبراهيم عليه السلام ، وجزء لا نشك أن فيه أموراً غير صحيحة ، وهو ما فوق إبراهيم إلى آدم عليهما السلام ، وقد أسلفنا الإشارة إلى بعض هذا ، وهاك تفصيل تلك الأجزاء الثلاثة :

الجزء الأول : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب – واسمه شيبة – بن هاشم – واسمه عمرو – بن عبد مناف – واسمه المغيرة – بن قصي – واسمه زيد – بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر – وهو الملقب بقريش وإليه تنتسب القبيلة – بن مالك بن النضر – واسمه قيس – بن كنانة بن خزيمة بن مدركة – واسمه عامر – بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان[1] .

الجزء الثاني : ما فوق عدنان ، وعدنان هو ابن أد بن هميسع بن سلامان ابن عوص بن بوز بن قموال بن أبي بن عوام بن ناشد بن حزا بن بلداس بن يدلاف بن طابخ بن جاحم بن ناحش بن ماخي بن عيض بن عبقر بن عبيد بن الدعا بن حمدان بن سنبر بن يثربي بن يحزن بن يلحن بن أرعوي بن عيض بن ديشان بن عيصر بن أفناد بن أيهام بن مقصر بن ناحث بن زارح بن سمي بن مزي بن عوضة بن عرام بن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام[2] .

---

(١) ابن هشام ١/١ ، ٢ . تلقيح فهوم أهل الأثر ٥ ، ٦ ، رحمة للعالمين ١١/٢ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ٥٢ .

(٢) قد جمع العلامة محمد سليمان المنصورفوري هذا الجزء من النسب برواية الكلبي ، وابن سعد بعد تحقيق دقيق . انظر رحمة للعالمين ١٤/٢ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ وفيه اختلاف كبير بين المصادر التاريخية .

الجزء الثالث : ما فوق إبراهيم عليه السلام ، وهو ابن تارح – واسمه آزر – بن ناحور بن ساروع – أو ساروغ – بن راعو بن فالخ بن عابر بن شالخ ابن أرفخشد بن سام بن نوح – عليه السلام – بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ – يقال هو إدريس عليه السلام – ابن يرد بن مهلائيل بن قينان بن آنوشة بن شيث بن آدم عليهما السلام[1] .

الأسرة النبوية:

تعرف أسرته ﷺ بالأسرة الهاشمية – نسبة إلى جده هاشم بن عبد مناف – وإذن فلنذكر شيئاً من أحوال هاشم ومن بعده .

(١) هاشم – وقد أسلفنا أن هاشماً هو الذي تولى السقاية والرفادة من بني عبد مناف حين تصالح بنو عبد مناف وبنو عبد الدار على اقتسام المناصب فيما بينهما ، وهاشم كان موسراً ذا شرف كبير ، وهو أول من أطعم الثريد للحجاج بمكة ، وكان اسمه عمرو فما سمي هاشماً إلا لهشمه الخبز ، وهو أول من سن الرحلتين لقريش ، رحلة الشتاء والصيف ، وفيه يقول الشاعر :

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ... قوم بمكة مسنتين عجاف
سنت إليه الرحلتان كلاهما ... سفر الشتاء ورحلة الأصياف

ومن حديثه أنه خرج إلى الشام تاجراً ، فلما قدم المدينة تزوج سلمى بنت عمرو أحد بني عدي بن النجار ، وأقام عندها ، ثم خرج إلى الشام – وهي عند أهلها قد حملت بعبد المطلب – فمات هاشم بغزة من أرض فلسطين ، وولدت امرأته سلمى عبد المطلب سنة ٤٩٧م ، وسمته شيبة لشيبة كانت في رأسه[2] ، وجعلت تربيه في بيت أبيها في يثرب ، ولم يشعر به أحد من أسرته بمكة وكان لهاشم أربعة بنين وهم : أسد ، وأبو صيفي ، ونضلة ، وعبد المطلب . وخمس بنات وهن : الشفاء ، وخالدة ، وضعيفة ، ورقية ، وجنة[3] .

(٢) عبد المطلب – قد علمنا مما سبق أن السقاية والرفادة بعد هاشم صارت إلى أخيه

---

(١) ابن هشام ١/٢ ، ٣ ، ٤ تلقيح فهوم أهل الأثر ص٦ ، خلاصة السير للطبري ص٦ ، ورحمة للعالمين ١٨/٢ واختلفت هذه المصادر في تلفظ بعض هذه الأسماء وكذا سقط من بعض المصادر بعض الأسماء .

(٢) ابن هشام ١٣٧/١ ، رحمة للعالمين ٢٦/١ ، ٢٤/٢ .

(٣) ابن هشام ١٠٧/١ .

المطلب بن عبد مناف (وكان شريفاً مطاعاً ذا فضل في قومه ، كانت قريش تسميه الفياض لسخائه) ولما صار شيبة – عبد المطلب – وصيفاً أو فوق ذلك سمع به المطلب . فرحل في طلبه ، فلما رآه فاضت عيناه ، وضمه ، وأردفه على راحلته ، فامتنع حتى تأذن له أمه ، فسألها المطلب أن ترسله معه ، فامتنعت فقال :

إنما يمضي إلى ملك أبيه ، وإلى حرم الله ، فأذنت له ، فقدم به مكة مردفه على بعيره ، فقال الناس : هذا عبد المطلب ، فقال ويحكم إنما هو ابن أخي هاشم .. فأقام عنده حتى ترعرع ، ثم إن المطلب هلك بردمان من أرض اليمن ، فولي بعده عبد المطلب ، فأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون لقومهم ، وشرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه ، وعظم خطره فيهم[1] .

ولما مات المطلب وثب نوفل على أركاح عبد المطلب فغصبه إياها ، فسأل رجالاً من قريش النصرة على عمه ، فقالوا لا ندخل بينك وبين عمك . فكتب إلى أخواله من بني النجار أبياتاً يستنجدهم ، وسار خاله أبو سعد بن عدي في ثمانين راكباً ، حتى نزل بالأبطح من مكة ، فتلقاه عبد المطلب ، فقال : المنزل ، يا خال ! فقال : لا والله حتى ألقى نوفلاً ، ثم أقبل فوقف نوفل ، وهو جالس في الحجر مع مشايخ قريش ، فسل أبو سعد سيفه وقال : ورب البيت لئن لم ترد على ابن أختي أركاحه لأمكنن منك هذا السيف ، فقال : رددتها عليه ، فأشهد عليه مشايخ قريش ، ثم نزل على عبد المطلب ، فأقام عنده ثلاثاً ، ثم اعتمر ورجع إلى المدينة ، فلما جرى ذلك حالف نوفل بني عبد شمس بن عبد مناف على بني هاشم ، ولما رأت خزاعة نصر بني النجار لعبد المطلب قالوا : نحن ولدناه كما ولدتموه ، فنحن أحق بنصره – وذلك أن أم عبد مناف منهم – فدخلوا دار الندوة ، وحالفوا بني هاشم على بني عبد شمس ونوفل ، وهذا الحلف الذي صار سبباً لفتح مكة كما سيأتي[2] .

ومن أهم ما وقع لعبد المطلب من أمور البيت شيئان[3] :

حفر بئر زمزم ووقعة الفيل .

---

(١) ابن هشام ١/١٣٧ ، ١٣٨ .

(٢) مختصر سيرة الرسول للشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي ص٤١ ، ٤٢ .

(٣) ابن هشام ١/١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ .

وخلاصة الأول أنه أمر في المنام بحفر زمزم ووصف له موضعها ، فقام يحفر ، فوجد فيه الأشياء التي دفنها الجراهمة حين لجأوا إلى الجلاء ، أي السيوف والدروع والغزالين من الذهب ، فضرب الأسياف باباً للكعبة ، وضرب في الباب الغزالين ، وأقام سقاية زمزم للحجاج .

ولما بدت بئر زمزم نازعت قريش عبد المطلب ، وقالوا له : أشركنا قال ما أنا بفاعل ، هذا أمر خصصت به ، فلم يتركوه حتى خرجوا به للمحاكمة إلى كاهنة بني سعد ، ولم يرجعوا حتى أراهم الله في الطريق ما دلهم على تخصيص عبد المطلب بزمزم ، وحينئذ نذر عبد المطلب لئن آتاه الله عشرة أبناء ، وبلغوا أن يمنعوه لينحرن أحدهم عند الكعبة .

وخلاصة الثاني أن أبرهة الصباح الحبشي ، النائب العام عن النجاشي على اليمن ، لما رأى العرب يحجون الكعبة بنى كنيسة كبيرة بصنعاء ، وأراد أن يصرف حج العرب إليها ، وسمع بذلك رجل من بني كنانة ، فدخلها ليلاً فلطخ قبلتها بالعذرة . ولما علم أبرهة بذلك ثار غيظه ، وسار بجيش عرمرم – عدده ستون ألف جندي – إلى الكعبة ليهدمها ، واختار لنفسه فيلاً من أكبر الفيلة ، وكان في الجيش ٩ فيلة أو ١٣ فيلاً ، وواصل سيره حتى بلغ المغمس ، وهناك عبأ جيشه ، وهيأ فيله ، وتهيأ لدخول مكة ، فلما كان في وادي محسر بين المزدلفة ومنى برك الفيل ، ولم يقم ليقدم إلى الكعبة ، وكانوا كلما وجهوه إلى الجنوب أو الشمال أو الشرق يقوم يهرول ، وإذا صرفوه إلى الكعبة برك ، فبينا هم كذلك إذ أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول ، وكانت الطير أمثال الخطاطيف والبلسان ، مع كل طائر ثلاثة أحجار ، حجر في منقاره ، وحجران في رجليه أمثال الحمص ، لا تصيب منهم أحداً إلا صار تتقطع أعضاؤه ، وهلك ، وليس كلهم أصابت ، وخرجوا هاربين يموج بعضهم في بعض فتساقطوا بكل طريق ، وهلكوا على كل منهل ، وأما أبرهة فبعث الله عليه داء تساقطت بسببه أنامله ، ولم يصل إلى صنعاء إلا وهو مثل الفرخ ، وانصدع صدره عن قلبه ثم هلك .

وأما قريش فكانوا قد تفرقوا في الشعاب وتحرزوا في رؤوس الجبال ، خوفاً على أنفسهم من معرة الجيش ، فلما نزل بالجيش ما نزل رجعوا إلى بيوتهم آمنين[1] .

وكانت هذه الوقعة في شهر المحرم قبل مولد النبي ﷺ بخمسين يوماً أو بخمسة وخمسين يوماً – عند الأكثر – وهو يطابق أواخر فبراير أو أوائل مارس سنة ٥٧١م ، وكانت تقدمة قدمها الله

(١) ابن هشام ١/٤٣ إلى ٥٦ ، تفهيم القرآن ٦/٦/٤٦٢ إلى ٤٦٩ .

لنبيه وبيته ، لأنا حين ننظر إلى بيت المقدس نرى أن المشركين من أعداء الله تسلطوا على هذه القبلة ، وأهلها مسلمون كما وقع لبختنصر سنة ٥٨٧ق.م ، والرومان سنة ٧٠م ، ولكن الكعبة لم يسيطر عليها النصارى – وهم المسلمون إذ ذاك – مع أن أهلها كانوا مشركين .

وقد وقعت هذه الوقعة في الظروف التي يبلغ نبأها إلى معظم المعمورة المتحضرة إذ ذاك ، فالحبشة كانت لها صلة قوية بالرومان ، والفرس لا يزالون لهم بالمرصاد ، يترقبون ما نزل بالرومان وحلفائهم ، ولذلك سرعان ما جاءت الفرس إلى اليمن بعد هذه الوقعة ، وهاتان الدولتان كانتا تمثلان العالم المتحضر . فهذه الوقعة لفتت أنظار العالم ودلته على شرف بيت الله ، وأنه هو الذي اصطفاه الله للتقديس ، فإذن لو قام أحد من أهله بدعوى النبوَّة كان ذلك هو عين ما تقتضيه هذه الوقعة ، وكان تفسيراً للحكمة الخفية التي كانت في نصرة الله ، المشركين ضد أهل الإيمان بطريق يفوق عالم الأسباب .

وكان لعبد المطلب عشرة بنين ، وهم : الحارث والزبير وأبو طالب ، وعبد الله ، وحمزة ، وأبو لهب ، والغيداق ، والمقوم ، وصفار ، والعباس ، وقيل : كانوا أحد عشر ، فزادوا ولدا اسمه قثم ، وقيل : كانوا ثلاثة عشر ، فزادوا عبد الكعبة وحجلا ، وقيل : إن عبد الكعبة هو المقوم ، وحجلا هو الغيداق ولم يكن من أولاده رجل اسمه قثم ، وأما البنات فست وهن : أم الحكيم – وهي البيضاء – وبرة وعاتكة وصفية وأروى وأميمة[1] .

(٣) عبد الله والد رسول الله ﷺ – أمة فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة ، وكان عبد الله أحسن أولاد عبد المطلب ، وأعفهم وأحبهم إليه ، وهو الذبيح ، وذلك أن عبد المطلب لما تم أبناؤه عشرة ، وعرف أنهم يمنعونه أخبرهم بنذره فأطاعوه ، فكتب أسماءهم في القداح ، وأعطاهم قيم هبل ، فضرب القداح فخرج القدح على عبد الله ، فأخذه عبد المطلب ، وأخذ الشفرة ، ثم أقبل به إلى الكعبة ليذبحه ، فمنعته قريش ولا سيما أخواله من بني مخزوم وأخوه أبو طالب ، فقال عبد المطلب : فكيف أصنع بنذري فأشاروا عليه أن يأتي عرافة فيستأمرها ، فأتاها ، فأمرت أن يضرب القداح على عبد الله وعلى عشر من الإبل ، فإن خرجت على عبد الله يزيد عشراً من الإبل حتى يرضى ربه ، فإن خرجت على الإبل نحرها ، فرجع

---

(١) تلقيح فهوم أهل الأثر ص٨ ، ٩ ، رحمة للعالمين ٢/٥٦ ، ٦٦ .

وأقرع بين عبد الله وبين عشر من الإبل فوقعت القرعة على عبد الله فلم يزل يزيد من الإبل عشراً عشراً ولا تقع القرعة إلا عليه إلى أن بلغت الإبل مائة فوقعت القرعة عليها ، فنحرت عنه ، ثم تركها عبد المطلب لا يرد عنها إنساناً ولا سبعاً ، وكانت الدية في قريش وفي العرب عشراً من الإبل ، فجرت بعد هذه الوقعة مائة من الإبل ، وأقرها الإسلام ، وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « أنا ابن الذبيحين » يعني إسماعيل ، وأباه عبد الله[1] .

واختار عبد المطلب لولده عبد الله آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، وهي يومئذ تعد أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً ، وأبوها سيد بني زهرة نسباً وشرفاً ، فبنى بها عبد الله في مكة ، وبعد قليل أرسله عبد المطلب إلى المدينة يمتار لهم تمراً ، فمات بها ، وقيل : بل خرج تاجراً إلى الشام ، فأقبل في عير قريش ، فنزل بالمدينة وهو مريض فتوفي بها ، ودفن في دار النابغة الجعدي ، وله إذ ذاك خمس وعشرون سنة ، وكانت وفاته قبل أن يولد رسول الله ﷺ ، وبه يقول أكثر المؤرخين ، وقيل : بل توفي بعد مولده بشهرين[2] . ولما بلغ نعيه إلى مكة رثته آمنة بأروع المراثي ، قالت :

عفا جانب البطحاء من ابن هاشم ... وجاور لحدا خارجا في الغماغم
دعته المنايا دعوة فأجابها ... وما تركت في الناس مثل ابن هاشم
عشية راحوا يحملون سريره ... تعاوره أصحابه في التزاحم
فإن تلك غالته المنايا وريبها ... فقد كان معطاء كثير التراحم[3]

وجميع ما خلفه عبد الله خمسة أجمال ، وقطعة غنم ، وجارية حبشية اسمها بركة وكنيتها أم أيمن ، وهي حاضنة رسول الله ﷺ[4] .

---

(١) ابن هشام ١٥١/١ إلى ١٥٥ ، رحمة للعالمين ٨٩/٢ ، ٩٠ مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله ص١٢ ، ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) ابن هشام ١٥٦/١ ، ١٥٨ ، فقه السيرة لمحمد الغزالي ص٤٥ ، رحمة للعالمين ٩١/٢ .

(٣) طبقات ابن سعد ٦٢/١ .

(٤) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص١٢ ، تلقيح فهوم أهل الأثر ص٤ صحيح مسلم ٩٦/٢ .

المولد وأربعون عاما قبل النبوة

المولد:

ولد سيد المرسلين ﷺ بشعب بني هاشم بمكة في صبيحة يوم الإثنين التاسع من شهر ربيع الأول ، لأول عام من حادثة الفيل ، ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنوشروان ، ويوافق ذلك العشرين أو الثاني وعشرين من شهر أبريل سنة ٥٧١م حسبما حققه العالم الكبير محمد سليمان المنصور فوري والمحقق الفلكي محمود باشا[١] .

وروى ابن سعد أن أم رسول الله ﷺ قالت : لما ولدته خرج من فرجي نور أضاءت له قصور الشام ، وروى أحمد عن العرباض بن سارية ما يقارب ذلك[٢] .

وقد روي أن إرهاصات بالبعثة وقعت عند الميلاد ، فسقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى ، وخمدت النار التي يعبدها المجوس ، وانهدمت الكنائس حول بحيرة ساوة بعد أن غاضت ، روى ذلك البيهقي[٣] ولا يقره محمد الغزالي[٤] .

ولما ولدته أمه أرسلت إلى جده عبد المطلب تبشره بحفيده ، فجاء مستبشراً ودخل به الكعبة ، ودعا الله وشكر له ، واختار له اسم محمد – وهذا الاسم لم يكن معروفاً في العرب – وختنه يوم سابعه كما كان العرب يفعلون[٥] .

---

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ٦٢/١ ، رحمة للعالمين ٣٨/١ ، ٣٩ واختلافهم في تعيين تاريخ أبريل فرع للاختلاف في التقويمات الميلادية .

(٢) انظر مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبد الله النجدي ص١٢ وابن سعد ٦٣/١ .

(٣) نفس المصدر الأول .

(٤) انظر فقه السيرة لمحمد الغزالي ص٤٦ .

(٥) ابن هشام ١٥٩/١ ، ١٦٠ ، ومحاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ٦٢/١ وقيل إنه ولد مختوناً ، انظر =

وأول من أرضعته من المراضع – بعد أمه ﷺ – ثويبة مولاة أبي لهب بلبن ابن لها يقال له مسروح ، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب ، وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي[1] .

في بني سعد:

وكانت العادة عند الحاضرين من العرب أن يلتمسوا المراضع لأولادهم ، ابتعاداً لهم عن أمراض الحواضر ؛ لتقوى أجسامهم ، وتشتد أعصابهم ، ويتقنوا اللسان العربي في مهدهم ، فالتمس عبد المطلب لرسول الله ﷺ الرضعاء ، واسترضع له امرأة من بني سعد بن بكر – وهي حليمة بنت أبي ذؤيب – وزوجها الحارث بن عبد العزى المكنى بأبي كبشة ، من نفس القبيلة .

وإخوته ﷺ هناك من الرضاعة عبد الله بن الحارث ، وأنيسة بنت الحارث ، وحذافة أو جذامة بنت الحارث (وهي الشيماء – لقب غلب على اسمها –) وكانت تحضن رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، ابن عم رسول الله ﷺ .

وكان عمه حمزة بن عبد المطلب مسترضعاً في بني سعد بن بكر ، فأرضعت أمه رسول الله ﷺ يوماً وهو عند أمه حليمة ، فكان حمزة رضيع رسول الله ﷺ من وجهين ، من جهة ثويبة ومن جهة السعدية[2] .

ورأت حليمة من بركته ﷺ ما قصَّت منه العجب ، ولنتركها تروي ذلك مفصلاً :

قال ابن إسحق : كانت حليمة تحدث : أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه ، في نسوة من بني سعد بن بكر ، تلتمس الرضعاء قالت : وذلك في سنة شهباء لم تبق لنا شيئاً ، قالت : فخرجت على أتان لي قمراء ، معنا شارف لنا ، والله ما تبض بقطرة ، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا ، من بكائه من الجوع ، ما في ثديي ما يغنيه ، وما في شارفنا ما يغذيه ، ولكن كنا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على أتاني تلك فلقد أدمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً ، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء ، فما منا امرأة إلا وقد عرض

= تلقيح فهوم أهل الأثر ص٤ وقال ابن القيم : ليس فيه حديث ثابت . انظر زاد المعاد ١٨/١ .

(١) تلقيح فهوم الأثر ص٤ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص١٣ .

(٢) زاد المعاد ١٩/١ .

عليها رسول الله ﷺ فتأباه ، إذا قيل لها إنه يتيم ، وذلك أنا كنا نرجو المعروف من أبي الصبي ، فكنا نقول : يتيم ! وما عسى أن تصنع أمه وجده ! فكنا نكرهه لذلك فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري ، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي : والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً ، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه . قال : لا عليك أن تفعلي ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة . قالت : فذهبت إليه ، فأخذته ، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره ، قالت : فلما أخذته رجعت به إلى رحلي ، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن ، فشرب حتى روي ، وشرب معه أخوه حتى روي ، ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك ، وقام زوجي إلى شارفنا تلك ، فإذا هي حافل ، فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا رياً وشبعاً ، فبتنا بخير ليلة ، قالت : يقول صاحبي حين أصبحنا : تعلمي والله يا حليمة ! لقد أخذت نسمة مباركة ، قالت : فقلت : والله إني لأرجو ذلك ، قالت : ثم خرجنا وركبت أنا أتاني ، وحملته عليها معي ، فوالله لقطعت بالركب ما لا يقدر عليه شيء من حمرهم ، حتى إن صواحبي ليقلن لي : يا ابنة أبي ذؤيب ، ويحك ! اربعي علينا ، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها ؟ فأقول لهن : بلى والله ! إنها لهي هي ، فيقلن : والله إن لها شأنا ، قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها ، فكانت غنمي تروح عليَّ حين قدمنا به معنا شباعاً لُبَّناً ، فنحلب ونشرب ، وما يحلب إنسان قطرة لبن ، ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياعاً ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمي شباعاً لُبَّناً ، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً ، قالت : فقدمنا به على أمه ونحن أحرص على مكثه فينا ، لما كنا نرى من بركته ، فكلمنا أمه ، وقلت لها : لو تركت ابني عندي حتى يغلظ ، فإني أخشى عليه وباء مكة ، قالت : فلم نزل بها حتى ردته معنا[1] .

وهكذا بقي رسول الله ﷺ في بني سعد ، حتى إذا كانت السنة الرابعة أو الخامسة[2] من

---

(١) ابن هشام ١/١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٢) هذا ما ذهب إليه عامة أهل السير ، ويقتضي سياق رواية ابن إسحاق أنه وقع في السنة الثالثة ، انظر ابن هشام ١/١٦٤ ، ١٦٥ .

مولده وقع حادث شق صدره ، روى مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ، وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه ، فشق عن قلبه ، فاستخرج القلب ، فاستخرج منه علقة ، فقال : هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده إلى مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه – يعني ظئره – فقالوا : إن محمداً قد قتل ، فاستقبلوه وهو منتقع اللون[1] .

إلى أمه الحنون:

وخشيت عليه حليمة بعد هذه الوقعة حتى ردته إلى أمه ، فكان عند أمه إلى أن بلغ ست سنين[2] .

ورأت آمنة وفاء لذكرى زوجها الراحل أن تزور قبره بيثرب ، فخرجت من مكة قاطعة رحلة تبلغ خمسمائة كيلو متراً ، ومعها ولدها اليتيم – محمد ﷺ – وخادمتها أم أيمن ، وقيمها عبد المطلب ، فمكثت شهراً ، ثم قفلت ، وبينما هي راجعة إذ يلاحقها المرض ، ويلح عليها في أوائل الطريق ، فماتت بالأبواء بين مكة والمدينة[3] .

إلى جده العطوف:

وعاد به عبد المطلب إلى مكة ، وكانت مشاعر الحنو في فؤاده تربو نحو حفيده اليتيم ، الذي أصيب بمصاب جديد نكأ الجروح القديمة ، فرق عليه رقة لم يرقها على أحد من أولاده ، فكان لا يدعه لوحدته المفروضة ، بل يؤثره على أولاده ، قال ابن هشام : كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه ، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له ، فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم : دعوا ابني هذا فوالله إن له لشأناً ،

---

(١) صحيح مسلم ، باب الإسراء ٩٢/١ .

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر ص٧ ، ابن هشام ١٦٨/١ .

(٣) ابن هشام ١٦٨/١ ، تلقيح فهوم أهل الأثر ص٧ ، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ٦٣/١ ، فقه السيرة للغزالي ص٥٠ .

ثم يجلس معه على فراشه ، ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع[1] .

ولثماني سنوات وشهرين وعشرة أيام من عمره ﷺ توفي جده عبد المطلب بمكة ، ورأى قبل وفاته أن يعهد بكفالة حفيده إلى عمه أبي طالب شقيق أبيه[2] .

إلى عمه الشفيق:

ونهض أبو طالب بحق ابن أخيه على أكمل وجه ، وضمه إلى ولده ، وقدمه عليهم ، واختصه بفضل احترام وتقدير ، وظل فوق أربعين سنة يعز جانبه . ويبسط عليه حمايته ، ويصادق ويخاصم من أجله ، وستأتي نبذ من ذلك في مواضعها .

يستسقى الغمام بوجهه:

أخرج ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قال : قدمت مكة وهم في قحط ، فقالت قريش : يا أبا طالب ! أقحط الوادي ، وأجدب العيال ، فهلم فاستسق ، فخرج أبو طالب ومعه غلام ، كأنه شمس دجن ، تجلت عنه سحابة قتماء ، حوله أغيلمة ، فأخذه أبو طالب ، فألصق ظهره بالكعبة ، ولاذ بأصبعه الغلام ، وما في السماء قزعة ، فأقبل السحاب من ههنا وههنا ، وأغدق واغدودق ، وانفجر الوادي وأخضب النادي والبادي ، وإلى هذا أشار أبو طالب حين قال :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل[3]

بحيرا الراهب:

ولما بلغ رسول الله ﷺ اثنتي عشرة سنة – قيل وشهرين وعشرة أيام[4] – ارتحل به أبو طالب تاجراً إلى الشام ، حتى وصل إلى بصرى – وهي معدودة من الشام وقصبة لحوران ، وكانت في ذلك الوقت قصبة للبلاد العربية التي كانت تحت حكم الرومان – وكان في هذه البلد راهب

(١) ابن هشام ١٦٨/١ .
(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر ص٧ ، ابن هشام ١٦٩/١ .
(٣) مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبد الله النجدي ص١٥ ، ١٦ .
(٤) قاله ابن الجوزي في تلقيح فهوم أهل الأثر ص٧ .

عرف ببحيرا واسمه جرجيس فلما نزل الركب خرج إليهم ، وأكرمهم بالضيافة ، وكان لا يخرج إليهم قبل ذلك وعرف رسول الله ﷺ بصفته ، فقال وهو آخذ بيده : هذا سيد العالمين ، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين . فقال أبو طالب : وما علمك بذلك ؟ فقال : إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا وخرَّ ساجداً ، ولا تسجد إلا لنبي ، وإني أعرفه بخاتم النبوة في أسفل غضروف كتفه مثل التفاحة ، وإنا نجده في كتبنا ، وسأل أبا طالب أن يرده ، ولا يقدم به إلى الشام ، خوفاً عليه من اليهود ، فبعثه عمه مع بعض غلمانه إلى مكة[1] .

حرب الفجار:

ولخمس عشرة من عمره ﷺ كانت حرب الفجار بين قريش ومن معهم من كنانة وبين قيس عيلان ، وكان قائد قريش وكنانة كلها حرب بن أمية لمكانته فيهم سناً وشرفاً ، وكان الظفر في أول النهار لقيس على كنانة ، حتى إذا كان وسط النهار كان الظفر لكنانة على قيس . وسميت بحرب الفجار لانتهاك حرمات الحرم والأشهر الحرم فيها ، وقد حضر هذه الحرب رسول الله ﷺ ، وكان ينبل على عمومته ، أي يجهز لهم النبل للرمي[2] .

حلف الفضول:

وعلى أثر هذه الحرب وقع حلف الفضول في ذي القعدة في شهر حرام ، تداعت إليه قبائل من قريش : بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وأسد بن عبد العزى ، وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرة ، فاجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان التيمي لسنه وشرفه ، فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته ، وشهد هذا الحلف رسول الله ﷺ ، وقال بعد أن أكرمه الله بالرسالة : لقد شهدت في

---

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص١٦ ، وابن هشام ١/١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ووقع في كتاب الترمذي وغيره أنه بعث معه بلالا (تحفة الأحوذي) وهو من الغلط الواضح ، فإن بلالا إذ ذاك لعله لم يكن موجوداً ، وإن كان موجوداً فلم يكن مع عمه ولا مع أبي بكر . زاد المعاد ١/١٧ .

(٢) ابن هشام ١/١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، قلب جزيرة العرب ص٢٦٠ ، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١/٦٣ .

دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم ، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت[1] .

وهذا الحلف روحه تنافي الحمية الجاهلية التي كانت العصبية تثيرها ، ويقال في سبب هذا الحلف إن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة ، واشتراها منه العاص بن وائل السهمي ، وحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الأحلاف عبد الدار ، ومخزوماً ، وجمحاً ، وسهماً ، وعدياً ، فلم يكترثوا له ، فعلا جبل أبي قبيس ، ونادى بأشعار يصف فيها ظلامته رافعاً صوته ، فمشى في ذلك الزبير بن عبد المطلب ، وقال : ما لهذا مترك ؟ حتى اجتمع الذين مضى ذكرهم في حلف الفضول ، فقاموا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه حق الزبيدي بعد ما أبرموا الحلف[2] .

حياة الكدح:

ولم يكن له ﷺ عمل معين في أول شبابه ، إلا أن الروايات توالت أنه كان يرعى غنماً ، رعاها في بني سعد[3] ، وفي مكة لأهلها على قراريط[4] وفي الخامسة والعشرين من سنه خرج تاجراً إلى الشام في مال خديجة رضي الله عنها ، قال ابن إسحق : كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال في مالها ، وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم ، وكانت قريش قوماً تجاراً فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه ، وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه ، فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار ، مع غلام لها يقال له ميسرة ، فقبله رسول الله ﷺ منها ، وخرج في مالها ذلك ، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام[5] .

زواجه خديجة:

ولما رجع إلى مكة ، ورأت خديجة في مالها من الأمانة والبركة ما لم تر قبل هذا ، وأخبرها

---

(١) ابن هشام ١/١١٣ ، ١٣٥ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص٣٠ ، ٣١ .

(٢) نفس المصدر الأخير ص٣٠ ، ٣١ .

(٣) ابن هشام ١/١٦٦ .

(٤) فقه السيرة لمحمد الغزالي ص٥٢ .

(٥) ابن هشام ١/١٨٧ ، ١٨٨ .

غلامها ميسرة بما رأى فيه ﷺ من خلال عذبة ، وشمائل كريمة ، وفكر راجح ، ومنطق صادق ، ونهج أمين . وجدت ضالتها المنشودة – وكان السادات والرؤساء يحرصون على زواجها ، فتأبى عليهم ذلك – فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منية ، وهذه ذهبت إليه ﷺ تفاتحه أن يتزوج خديجة ، فرضي بذلك ، وكلم أعمامه ، فذهبوا إلى عم خديجة ، وخطبوها إليه ، وعلى أثر ذلك تم الزواج ، وحضر العقد بنو هاشم ورؤساء مضر ، وذلك بعد رجوعه من الشام بشهرين ، وأصدقها عشرين بكرة ، وكانت سنها إذ ذاك أربعين سنة ، وكانت يومئذ أفضل نساء قومها نسباً وثروة وعقلاً ، وهي أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت[1] .

وكل أولاده ﷺ منها سوى إبراهيم ، ولدت له أولا القاسم – وبه كان يكنى – ثم زينب ورقية ، وأم كلثوم وفاطمة وعبد الله ، وكان عبد الله يلقب بالطيب والطاهر ، ومات بنوه كلهم في صغرهم ، أما البنات فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن ، إلا أنهن أدركتهن الوفاة في حياته ﷺ ، سوى فاطمة رضي الله عنها فقد تأخرت بعده ستة أشهر ، ثم لحقت به[2] .

بناء الكعبة وقضية التحكيم:

ولخمس وثلاثين سنة من مولده ﷺ قامت قريش ببناء الكعبة ، وذلك لأن الكعبة كانت رضماً فوق القامة ، ارتفاعها تسعة أذرع من عهد إسماعيل ، ولم يكن لها سقف ، فسرق نفر من اللصوص كنزها الذي كان في جوفها ، وكانت مع ذلك قد تعرضت – باعتبارها أثراً قديماً – للعوادي التي أوهت بنيانها ، وصدعت جدرانها ، وقبل بعثته ﷺ بخمس سنين جرف مكة سيل عرم ، انحدر إلى البيت الحرام ، فأوشكت الكعبة منه على الانهيار ، فاضطرت قريش إلى تجديد بنائها حرصاً على مكانتها ، واتفقوا على أن لا يدخلوا في بنائها إلا طيباً ، فلا يدخلوا فيها مهر بغي ، ولا بيع رباً ، ولا مظلمة أحد من الناس ، وكانوا يهابون هدمها ، فابتدأ بها الوليد ابن المغيرة المخزومي ، وتبعه الناس لما رأوا أنه لم يصبه شيء ، ولم يزالوا في الهدم حتى وصلوا إلى قواعد

---

(١) ابن هشام ١/١٨٩ ، ١٩٠ ، فقه السيرة لمحمد الغزالي ص٥٩ ، تلقيح فهوم أهل الأثر ص٧ .

(٢) نفس المصدر الأول ١/١٩٠ ، ١٩١ ، والثاني ص٦٠ ، وفتح الباري ٧/٥٠٧ وبين المصادر اختلاف يسير أخذنا ما هو الراجح عندنا .

إبراهيم ، ثم أرادوا الأخذ في البناء ، فجزأوا الكعبة ، وخصصوا لكل قبيلة جزءاً منها ، فجمعت كل قبيلة حجارة على حدة ، وأخذوا يبنونها ، وتولى البناء بنّاء رومي اسمه باقوم ، ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يمتاز بشرف وضعه في مكانه ، واستمر النزاع أربع ليال أو خمساً ، واشتد حتى كاد يتحول إلى حرب ضروس في أرض الحرم ، إلا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومي عرض عليهم أن يحكموا فيما شجر بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد فارتضوه ، وشاء الله أن يكون ذلك رسول الله ﷺ ، فلما رأوه هتفوا : هذا الأمين ، رضيناه ، هذا محمد . فلما انتهى إليهم ، وأخبروه الخبر طلب رداء ، فوضع الحجر وسطه ، وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعاً بأطراف الرداء ، وأمرهم أن يرفعوه ، حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذه بيده ، فوضعه في مكانه ، وهذا حل حصيف رضي به القوم .

وقصرت بقريش النفقة الطيبة فأخرجوا من الجهة الشمالية نحواً من ستة أذرع ، وهي التي تسمى بالحجر والحطيم ، ورفعوا بابها من الأرض ؛ لئلا يدخلها إلا من أرادوا ، ولما بلغ البناء خمسة عشر ذراعاً سقفوه على ستة أعمدة .

وصارت الكعبة بعد انتهائها ذات شكل مربع تقريباً يبلغ ارتفاعه ١٥ متراً ، وطول ضلعه الذي في الحجر الأسود والمقابل له ١٠ ، ١٠م ، والحجر موضوع على ارتفاع ١,٥٠م من أرضية المطاف . والضلع الذي في الباب والمقابل له ١٢م وبابها على ارتفاع مترين على الأرض ، ويحيط بها من الخارج قصبة من البناء أسفلها ، متوسط ارتفاعها ٠,٢٥م ومتوسط عرضها ٠,٣٠م وتسمى بالشاذروان ، وهي من أصل البيت لكن قريشاً تركتها[1] .

السيرة الإجمالية قبل النبوة:

إن النبي ﷺ كان قد جمع في نشأته خير ما في طبقات الناس من ميزات ، وكان طرازاً رفيعاً من الفكر الصائب ، والنظر السديد ، ونال حظاً وافراً من حسن الفطنة وأصالة الفكرة وسداد الوسيلة والهدف ، وكان يستعين بصمته الطويل على طول التأمل وإدمان الفكرة واستكناه الحق ، وطالع بعقله الخصب وفطرته الصافية صحائف الحياة وشؤون الناس وأحوال الجماعات ،

(١) انظر في تفصيل بناء الكعبة ابن هشام ١٩٢/١٢ إلى ١٩٧ ، وفقه السيرة لمحمد الغزالي ص٦٢ ، ٦٣ ، وصحيح البخاري باب فضل مكة وبنيانها ٢١٥/١ ، ومحاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ٦٤/١ ، ٦٥ .

فعاف ما سواها من خرافة ، ونأى عنها ، ثم عايش الناس على بصيرة من أمره وأمرهم ، فما وجد حسنا شارك فيه ، وإلا عاد إلى عزلته العتيدة ، فكان لا يشرب الخمر ، ولا يأكل مما ذبح على النصب ، ولا يحضر للأوثان عيداً ، ولا احتفالاً ، بل كان من أول نشأته نافراً من هذه المعبودات الباطلة ، حتى لم يكن شيء أبغض إليه منها ، وحتى كان لا يصبر على سماع الحلف باللات والعزى[1] .

ولا شك أن القدر حاطه بالحفظ ، فعندما تتحرك نوازع النفس لاستطلاع بعض متع الدنيا ، وعندما يرضى باتباع بعض التقاليد غير المحمودة تتدخل العناية الربانية للحيلولة بينه وبينها ، روى ابن الأثير قال رسول الله ﷺ : « ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بيني وبينه ، ثم ما هممت به حتى أكرمني برسالته ، قلت ليلة للغلام الذي يرعى معي الغنم بأعلى مكة : لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب ! فقال : أفعل ، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفاً ، فقلت ما هذا ؟ فقالوا : عرس فلان بفلانة ، فجلست أسمع . فضرب الله على أذني فنمت ، فما أيقظني إلا حر الشمس . فعدت إلى صاحبي فسألني ، فأخبرته ، ثم قلت ليلة أخرى مثل ذلك ، ودخلت بمكة فأصابني مثل أول ليلة .. ثم ما هممت بسوء »[2] .

وروى البخاري عن جابر بن عبد الله قال : لما بنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ وعباس ينقلان الحجارة ، فقال عباس للنبي ﷺ : اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة ، فخر إلى الأرض ، وطمحت عيناه إلى السماء ، ثم أفاق فقال : إزاري ، إزاري ، فشد عليه إزاره[3] وفي رواية فما رؤيت له عورة بعد ذلك[4] .

وكان النبي ﷺ يمتاز في قومه بخلال عذبة وأخلاق فاضلة ، وشمائل كريمة فكان أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقاً ، وأعزهم جواراً ، وأعظمهم حلماً ، وأصدقهم حديثاً ، وألينهم

---

(١) يدل عليه كلامه مع بحيرا . انظر ابن هشام ١٢٨/١ .

(٢) اختلفوا في صحة هذا الحديث فصححه الحاكم والذهبي وضعفه ابن كثير في البداية والنهاية ٢٨٧/٢ .

(٣) صحيح البخاري باب بنيان الكعبة ٥٤٠/١ .

(٤) نفس المصدر مع شرح القسطلاني .

عريكة ، وأعفهم نفساً ، وأكرمهم خيراً ، وأبرهم عملاً ، وأوفاهم عهداً ، وآمنهم أمانة ، حتى سماه قومه « الأمين » ؛ لما جمع فيه من الأحوال الصالحة والخصال المرضية ، وكان كما قالت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها : يحمل الكل ، ويكسب المعدوم ، ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق[1] .

---

(١) صحيح البخاري ١/٣ .

في ظلال النبوة والرسالة

في غار حراء :

ولما تقاربت سنه ﷺ الأربعين، وكانت تأملاته الماضية قد وسعت الشقة العقلية بينه وبين قومه، حبب إليه الخلاء، فكان يأخذ السويق والماء ويذهب إلى غار حراء في جبل النور، على مبعدة نحو ميلين من مكة ــ وهو غار لطيف طوله أربعة أذرع، وعرضه ذراع وثلاثة أرباع ذراع من ذراع الحديد ــ ومعه أهله قريباً منه، فيقيم فيه شهر رمضان، يطعم من جاءه من المساكين، ويقضي وقته في العبادة والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون، وفيما وراءها من قدرة مبدعة، وهو غير مطمئن لما عليه قومه من عقائد الشرك المهلهلة، وتصوراتها الواهية، ولكن ليس بين يديه طريق واضح، ولا منهج محدد، ولا طريق قاصد يطمئن إليه ويرضاه[1].

وكان اختياره ﷺ لهذه العزلة طرفاً من تدبير الله له، وليعده لما ينتظره من الأمر العظيم. ولا بد لأي روح يراد لها أن تؤثر في واقع الحياة البشرية فتحولها وجهة أخرى.. لا بد لهذه الروح من خلوة وعزلة بعض الوقت، وانقطاع عن شواغل الأرض وضجة الحياة، وهموم الناس الصغيرة التي تشغل الحياة.

وهكذا دبر الله لمحمد ﷺ وهو يعده لحمل الأمانة الكبرى، وتغيير وجه الأرض، وتعديل خط التاريخ.. دبر له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات، ينطلق في هذه العزلة شهراً من الزمان، مع روح الوجود الطليقة، ويتدبر ما وراء الوجود من غيب مكنون، حتى يحين موعد التعامل مع هذا الغيب عندما يأذن الله[2].

---

(١) رحمة للعالمين ٤٧/١، وابن هشام ٢٣٥/١، ٢٣٦، في ظلال القرآن الجزء ١٦٦/٢٩.

(٢) نفس المصدر الأخير ١٦٦/٢٩، ١٦٧.

جبريل ينزل بالوحي:

ولما تكامل له أربعون سنة – وهي رأس الكمال ، وقيل : ولها تبعث الرسل – بدأت آثار النبوة تتلوح وتتلمع له من وراء آفاق الحياة ، وتلك الآثار هي الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، حتى مضت على ذلك ستة أشهر – ومدة النبوة ثلاث وعشرون سنة ، فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة – فلما كان رمضان من السنة الثالثة من عزلته ﷺ بحراء شاء الله أن يفيض من رحمته على أهل الأرض ، فأكرمه بالنبوة ، وأنزل إليه جبريل بآيات من القرآن[1] .

وبعد النظر والتأمل في القرائن والدلائل يمكن لنا أن نحدد ذلك اليوم بأنه كان يوم الإثنين لإحدى وعشرين مضت من شهر رمضان ليلاً ، ويوافق ١٠ أغسطس سنة ٦١٠م ، وكان عمره ﷺ إذ ذاك بالضبط أربعين سنة قمرية ، وستة أشهر ، و ١٢ يوماً ، وذلك نحو ٣٩ سنة شمسية وثلاثة أشهر و ٢٢ يوماً[2] .

---

(١) قال ابن حجر : وحكى البيهقي أن مدة الرؤيا كانت ستة أشهر ، وعلى هذا فابتداء النبوة بالرؤيا وقع في شهر مولده وهو ربيع الأول ، بعد إكماله أربعين سنة ، وابتداء وحي اليقظة في رمضان (فتح الباري ١/٢٧) .

(٢) اختلف المؤرخون اختلافاً كبيراً في أول شهر أكرمه الله فيه بالنبوة ، وإنزال الوحي ، فذهبت طائفة كبيرة إلى أنه شهر ربيع الأول ، وذهبت طائفة أخرى إلى أنه رمضان ، وقيل هو شهر رجب (انظر مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب النجدي ص٧٥) ورجحنا الثاني – أي أنه شهر رمضان – لقوله تعالى : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ (٢ : ١٨٥) ولقوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ (٩٧ : ١) ومعلوم أن ليلة القدر في رمضان ، وهي المرادة بقول تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ، إنا كنا منذرين ﴾ (٤٤ : ٣) ولأن جواره ﷺ بحراء كان في رمضان ، وكانت وقعة نزول جبريل فيها كما هو معروف .

ثم اختلف القائلون ببدء نزول الوحي في رمضان في تحديد ذلك اليوم ، فقيل : هو اليوم السابع ، وقيل السابع عشر ، وقيل الثامن عشر (انظر مختصر سيرة الرسول المذكور ص٧٥ ، ورحمة للعالمين ١/٤٩) وقد أصر الخضري في محاضراته على أنه اليوم السابع عشر (محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ١/٦٩) .

وإنما رجحنا أنه اليوم الحادي والعشرون مع أنا لم نر من قال به لأن أهل السيرة كلهم أو أكثرهم متفقون على أن مبعثه ﷺ كان يوم الإثنين ، ويؤيدهم ما رواه أئمة الحديث عن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن صوم يوم الإثنين ، فقال : فيه ولدت فيه أنزل علي ، وفي لفظ : ذاك يوم ولدت فيه ويوم بعثت أو أنزل علي فيه (صحيح مسلم ١/٣٦٨ ، أحمد ٥/٢٩٧ ، ٢٩٩ ، البيهقي ٤/٢٨٦ ، ٣٠٠ ، =

ولنستمع إلى عائشة الصديقة رضي الله تعالى عنها تروي لنا قصة هذه الوقعة التي كانت شعلة من نور اللاهوت ، أخذت تفتح دياجير ظلمات الكفر والضلال ، حتى غيرت مجرى الحياة ، وعدلت خط التاريخ . قالت عائشة رضي الله عنها :

أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه – وهو التعبد – الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ : فقلت : ما أنا بقارىء ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني فقال : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾[1] فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة ، مالي ، وأخبرها الخبر ، لقد خشيت على نفسي ، فقالت خديجة : كلا ، والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزي ابن عم خديجة – وكان امرءاً تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي – فقالت له خديجة : يا ابن عم ! اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزله الله على موسى ، يا ليتني فيها جذعاً ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك فقال رسول الله ﷺ : أو مُخرجيَّ هُم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ،

= الحاكم ٦٠٢/٠٢) ويوم الإثنين في رمضان من تلك السنة لا يوافق إلا اليوم السابع ، والرابع عشر ، والحادي والعشرين ، والثامن والعشرين ، وقد دلت الروايات الصحيحة أن ليلة القدر لا تقع إلا في وتر من ليالي العشر الأواخر من رمضان وأنها تتنقل فيما بين هذه الليالي ، فإذا قارنا بين قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ ، وبين رواية أبي قتادة أن مبعثه ﷺ كان يوم الإثنين وبين حساب التقويم العلمي في وقوع يوم الإثنين في رمضان من تلك السنة تعين لنا أن مبعثه ﷺ كان في اليوم الحادي والعشرين من رمضان ليلاً .

(١) كان نزول الآيات إلى قوله تعالى : ﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي[1] .

وروى الطبري وابن هشام ما يفيد أنه خرج من غار حراء بعدما فوجيء بالوحي ثم رجع وأتم جواره ، وبعد ذلك رجع إلى مكة ، ورواية الطبري تلقي ضوءاً على سبب خروجه وهاك نصها :

قال رسول الله ﷺ بعد ذكر مجيء الوحي : ولم يكن من خلق الله أبغض عليَّ من شاعر أو مجنون ، كنت لا أطيق أن أنظر إليهما ، قال : قلت : ان الابعد – يعني نفسه – شاعر أو مجنون إلا تحدث بها عني قريش أبداً ! لأعمدن إلى حالق من الجبل فلأطرحن نفسي منه فلأقتلنها ، فلأستريحن ! قال : فخرجت أريد ذلك ، حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : يا محمد !! أنت رسول الله ، وأنا جبريل . قال : فرفعت رأسي إلى السماء ، فإذا جبريل في صورة رجل صافٌ قدميه في أفق السماء يقول : يا محمد ! أنت رسول الله وأنا جبريل . قال : فوقفت أنظر إليه ، وشغلني ذلك عما أردت ، فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي ، ولا أرجع ورائي ، حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي ، حتى بلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مقامي ، ثم انصرف عني وانصرفت راجعاً إلى أهلي[2] حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مضيفاً إليها (ملتصقاً بها مائلاً إليها) فقالت : يا أبا القاسم ! أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلي ، ثم حدثتها بالذي رأيت ، فقالت : أبشر يا ابن عم ، واثبت ، فو الذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة[3] ، ثم قامت فانطلقت إلى ورقة وأخبرته . فقال : قدوس قدوس ، والذي نفس ورقة بيده لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه لنبي هذه الأمة ، فقولي له : فليثبت ، فرجعت خديجة وأخبرته بقول ورقة ، فلما قضى رسول الله ﷺ جواره وانصرف (إلى مكة) لقيه ورقة ، وقال بعد أن سمع منه خبره : والذي نفسي بيده ، إنك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى[4] .

---

(١) صحيح البخاري ١/٢ ، ٣ ، وقد أخرجه البخاري مع اختلاف يسير في اللفظ في كتابي التفسير وتعبير الرؤيا .

(٢) نص الطبري ٢٠٧/٢ .

(٣) نص ابن هشام ٢٣٧/١ – ٢٣٨ .

(٤) ملخص من ابن هشام ٢٣٨/١ .

فترة الوحي:

أما مدة فترة الوحي فروى ابن سعد عن ابن عباس ما يفيد أنها كانت أياماً[1] وهذا الذي يترجح بل يتعين بعد إدارة النظر في جميع الجوانب . وأما ما اشتهر من أنها دامت طيلة ثلاث سنين أو سنتين ونصف فلا يصح بحال ، وليس هذا موضع التفصيل في رده .

وقد بقي رسول الله ﷺ في أيام الفترة كئيباً محزوناً ، تعتريه الحيرة والدهشة ، فقد روى البخاري في كتاب التعبير ما نصه :

وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ فيما بلغنا حزناً عدا[2] منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال ، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدى له جبريل فقال : يا محمد إنك رسول الله حقاً ، فيسكن لذلك جأشه ، وتقر نفسه ، فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفى بذروة الجبل تبدى له جبريل فقال له مثل ذلك[3] .

جبريل ينزل بالوحي مرة ثانية:

قال ابن حجر : وكان ذلك (أن انقطاع الوحي أياماً) ، ليذهب ما كان ﷺ وجده من الروع ، وليحصل له التشوف إلى العود[4] ، فلما تقلصت ظلال الحيرة ، وثبتت أعلام الحقيقة ، وعرف ﷺ معرفة اليقين أنه أضحى نبياً لله الكبير المتعال ، وأن ما جاءه سفير الوحي ينقل إليه خبر السماء وصار تشوفه وارتقابه لمجيء الوحي سبباً في ثباته واحتماله عندما يعود ، جاءه جبريل للمرة الثانية . روى البخاري عن جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي ، قال :

فبينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت بصري قبل السماء ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض ، فجئثت منه حتى هويت إلى الأرض ، فجئت أهلي فقلت : زملوني زملوني ، فزملوني ، فأنزل الله تعالى : يا أيها المدثر إلى قوله : فاهجر ، ثم

---

(١) فتح الباري ١/٢٧ ، ١٢/٣٦٠ .

(٢) بالعين المهملة من العدو ، وهو الذهاب بسرعة ، وفي بعض النسخ « غدا » بالغين المعجمة .

(٣) صحيح البخاري كتاب التعبير باب أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة ٢/١٠٣٤٠ .

(٤) فتح الباري ١/٢٧ .

حمي الوحي وتتابع[1] .

استطراد في بيان أقسام الوحي:

قبل أن نأخذ في تفصيل حياة الرسالة والنبوة ، نرى أن نتعرف أقسام الوحي الذي هو مصدر الرسالة ومدد الدعوة . قال ابن القيم – وهو يذكر مراتب الوحي :

إحداها : الرؤيا الصادقة ، وكانت مبدأ وحيه ﷺ .

الثانية : ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه ، كما قال النبي ﷺ : إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها . فاتقوا الله ، وأجملوا في الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله ، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته .

الثالثة : أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلاً فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له ، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً .

الرابعة : أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس ، وكان أشده عليه فيلتبس به الملك ، حتى أن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد ، وحتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها ، ولقد جاء الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت ، فثقلت عليه حتى كادت ترضها .

الخامسة : أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها ، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه ، وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك في سورة النجم .

السادسة : ما أوحاه الله إليه ، وهو فوق السماوات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها .

السابعة : كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك كما كلّم الله موسى بن عمران ، وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعاً بنص القرآن . وثبوتها لنبينا ﷺ هو في حديث الإسراء .

وقد زاد بعضهم مرتبة ثامنة وهي تكليم الله له كفاحاً من غير حجاب ، وهي مسألة خلاف بين السلف والخلف . انتهى مع تلخيص يسير في بيان المرتبة الأولى والثامنة[2] ، والحق أن هذه الأخيرة ليست بثابتة .

---

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير باب والرجز فاهجر ٢/٧٣٣ .

(٢) انظر زاد المعاد ١/١٨ .

أمر القيام بالدعوة إلى الله، وموادها

تلقى النبي ﷺ أوامر عديدة في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ أوامر بسيطة ساذجة في الظاهر ، بعيدة المدى والغاية ، قوية الأثر والفعل في الحقيقة ونفس الأمر .

١ – فغاية القيام بالإنذار أن لا يترك أحداً ممن يخالف مرضاة الله في عالم الوجود إلا وينذره بعواقبه الوخيمة حتى تقع رجفة وزلزال في قلبه وروعه .

٢ – وغاية تكبير الرب أن لا يترك لأحد كبرياء في الأرض إلا وتكسر شوكتها ، وتقلب ظهراً لبطن ، حتى لا يبقى في الأرض إلا كبرياء الله تعالى .

٣ – وغاية تطهير الثياب وهجران الرجز أن يبلغ في تطهير الظاهر والباطن وفي تزكية النفس من جميع الشوائب والألواث إلى أقصى حد وكمال يمكن لنفس بشرية تحت ظلال رحمة الله الوارفة وحفظه وكلئه وهدايته ونوره ، حتى يكون أعلى مثل في المجتمع البشري ، تجتذب إليه القلوب السليمة ، وتحس بهيبته وفخامته القلوب الزائغة ، حتى ترتكز إليه الدنيا بأسرها وفاقاً أو خلافاً .

٤ – وغاية عدم الاستكثار بالمنة أن لا يعد فعالاته وجهوده فخيمة عظيمة ، بل لا يزال يجتهد في عمل بعد عمل ، ويبذل الكثير من الجهد والتضحية والفداء ، ثم ينسى كل ذلك ، بل يفنى في الشعور بالله بحيث لا يحس ولا يشعر بما بذل وقدم .

٥ – وفي الآية الأخيرة إشارة إلى ما سيلقاه من أذى المعاندين من المخالفة والاستهزاء والسخرية إلى الجد والاجتهاد في قتله وقتل أصحابه ، وإبادة كل من التف حوله من المؤمنين ، يأمر الله تعالى أن يصبر على كل من ذلك بقوة وجلادة ، لا لينال حظاً من حظوظ نفسه ، بل لمجرد مرضاة ربه .

الله أكبر! ما أبسط هذه الأوامر في صورتها الظاهرة. وما أروعها في إيقاعاتها الهادئة الخلابة، ولكن ما أكبرها وأفخمها وأشدها في العمل، وما أعظمها إثارة لعاصفة هوجاء تحضر جوانب العالم كله، وتتركها يتلاحم بعضها في بعض.

والآيات نفسها تشتمل على مواد الدعوة والتبليغ، فالإنذار نفسه يقتضي أن هناك أعمالاً لها عاقبة سوأى يلقاها أصحابها، ونظراً لما يعرفه كل أحد أن الدنيا لا يجازى فيها بكل ما يعمل الناس، بل ربما لا يمكن المجازاة بجميع الأعمال. فالإنذار يقتضي يوماً للمجازاة غير أيام الدنيا، وهو الذي يسمى بيوم القيامة ويوم الجزاء والدين، وهذا يستلزم حياة أخرى غير الحياة التي نعيشها في الدنيا.

وسائر الآيات تطلب من العباد التوحيد الصريح، وتفويض الأمور كلها إلى الله تعالى، وترك مرضاة النفس، ومرضاة العباد إلى مرضاة الله تعالى.

فإذن تتلخص هذه المواد في:

(أ) التوحيد.

(ب) الإيمان بيوم الآخرة.

(ج) القيام بتزكية النفس بأن تتناهى عن المنكرات والفواحش التي تفضي إلى سوء العاقبة، وبأن تقوم باكتساب الفضائل والكمالات وأعمال الخير.

(د) تفويض الأمور كلها إلى الله تعالى.

(هـ) وكل ذلك بعد الإيمان برسالة محمد ﷺ وتحت قيادته النبيلة وتوجيهاته الرشيدة.

ثم إن مطلع الآيات تضمنت النداء العلوي ــ في صوت الكبير المتعال ــ بانتداب النبي ﷺ لهذا الأمر الجلل، وانتزعه من النوم والتدثر والدفء إلى الجهال والكفاح والمشقة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ كأنه قيل: إن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحاً، أما أنت الذي تحمل هذا العبء الكبير فما لك والنوم؟ وما لك والراحة؟ وما لك والفراش الدافئ؟ والعيش الهادئ؟ والمتاع المريح! قم للأمر العظيم الذي ينتظرك، والعبء الثقيل المهيأ لك. قم للجهد والنصب، والكد والتعب. قم فقد مضى وقت النوم والراحة، وما عاد منذ اليوم إلا السهر المتواصل، والجهاد الطويل الشاق. قم فتهيأ لهذا الأمر واستعد.

إنها لكلمة عظيمة رهيبة، تنزعه ﷺ من دفء الفراش في البيت الهادئ والحضن الدافئ، لتدفع به في الخضم، بين الزعازع والأنواء، وبين الشد والجذب في ضمائر الناس وفي واقع الحياة سواء.

وقام رسول الله ﷺ، فظل قائماً بعدها أكثر من عشرين عاماً! لم يسترح ولم يسكن، ولم يعش لنفسه ولا لأهله. قام وظل قائماً على دعوة الله، يحمل على عاتقه العبء الثقيل الباهظ ولا ينوء به، عبء الأمانة الكبرى في هذه الأرض، عبء البشرية كلها، عبء العقيدة كلها، وعبء الكفاح والجهاد في ميادين شتى، عاش في المعركة الدائبة المستمرة أكثر من عشرين عاماً. لا يلهيه شأن عن شأن في خلال هذا الأمد. منذ أن سمع النداء العلوي الجليل، وتلقى منه التكليف الرهيب... جزاه الله عنه وعن البشرية كلها خير الجزاء[1].

وليست الأوراق الآتية إلى صورة مصغرة بسيطة من هذا الجهاد الطويل الشاق الذي قام به رسول الله ﷺ خلال هذا الأمد.

---

(١) في ظلال القرآن تفسير سورتي المزمل والمدثر، ج١٦٨/٢٩، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢.

أدوار الدعوة ومراحلها

يمكن أن نقسم عهد الدعوة المحمدية – على صاحبها الصلاة والسلام والتحية – إلى دورين يمتاز أحدهما عن الآخر تمام الامتياز وهما :

(١) الدور المكي ، ثلاث عشرة سنة تقريباً .

(٢) الدور المدني ، عشر سنوات كاملة .

ثم يشتمل كل من الدورين على مراحل لكل منها خصائص تمتاز بها عن غيرها ، ويظهر ذلك جلياً بعد النظر الدقيق في الظروف التي مرت بها الدعوة خلال الدورين .

ويمكن تقسيم الدور المكي إلى ثلاث مراحل :

١ – مرحلة الدعوة السرية ، ثلاث سنين .

٢ – مرحلة إعلان الدعوة في أهل مكة ، من بداية السنة الرابعة من النبوة إلى أواخر السنة العاشرة .

٣ – مرحلة الدعوة خارج مكة ، وفشوها فيهم ، من أواخر السنة العاشرة من النبوة إلى هجرته ﷺ إلى المدينة .

أما مراحل الدور المدني فسيجيء تفصيلها في موضعه .

المرحلة الأولى
جهاد الدعوة

ثلاث سنوات من الدعوة السرية:

معلوم أن مكة كانت مركز دين العرب ، وكان بها سدنة الكعبة ، والقوام على الأوثان والأصنام المقدسة عند سائر العرب ، فالوصول إلى المقصود من الإصلاح فيها يزداد عسراً وشدة عما لو كان بعيداً عنها . فالأمر يحتاج إلى عزيمة لا تزلزلها المصائب والكوارث ، كان من الحكمة تلقاء ذلك أن تكون الدعوة في بدء أمرها سرية ، لئلا يفاجأ أهل مكة بما يهيجهم .

الرعيل الأول:

وكان من الطبيعي أن يعرض الرسول ﷺ الإسلام أولاً على ألصق الناس به وآل بيته ، وأصدقائه ، فدعاهم إلى الإسلام ، ودعا إليه كل من توسم فيه خيراً ممن يعرفهم ويعرفونه ، يعرفهم بحب الله الحق والخير ، ويعرفونه بتحري الصدق والصلاح ، فأجابه من هؤلاء – الذين لم تخالجهم ريبة قط في عظمة الرسول ﷺ وجلالة نفسه وصدق خبره – جمع عرفوا في التاريخ الإسلامي بالسابقين الأولين ، وفي مقدمتهم زوجة النبي ﷺ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ، ومولاه زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي[1] وابن عمه علي بن أبي طالب – وكان صبياً يعيش في كفالة الرسول – وصديقه الحميم أبو بكر الصديق . أسلم هؤلاء في أول يوم من أيام الدعوة[2] .

---

(١) كان قد أسر ورق ، فملكته خديجة ، ووهبته لرسول الله ﷺ ، وجاءه أبوه وعمه ليذهبا به إلى قومه وعشيرته ، فاختار عليهما رسول الله ﷺ ، فتبناه حسب قواعد العرب ، وكان لذلك يقال : زيد بن محمد ، حتى جاء الإسلام فأبطل التبنّي .

(٢) رحمة للعالمين ١/٥٠ .

ثم نشط أبو بكر في الدعوة إلى الإسلام ، وكان رجلاً مألفاً محبباً سهلاً ، ذا خلق ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه ، لعلمه وتجارته ، وحسن مجالسته ، فجعل يدعو من يثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه ، فأسلم بدعائه عثمان بن عفان الأموي ، والزبير بن العوام الأسدي ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص الزهريان ، وطلحة بن عبيد الله التيمي . فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس هم الرعيل الأول وطليعة الإسلام .

ومن أوائل المسلمين بلال بن رباح الحبشي ، ثم تلاهم أمين هذه الأمة[1] أبو عبيدة عامر بن الجراح من بني الحارث بن فهر، وأبو سلمة بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم المخزوميان، وعثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبد الله ، وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ، وسعيد بن زيد العدوي ، وامرأته فاطمة بنت الخطاب العدوية أخت عمر بن الخطاب ، وخباب بن الأرت وعبد الله بن مسعود الهذلي وخلق سواهم ، وأولئك هم السابقون الأولون ، وهم من جميع بطون قريش وعدهم ابن هشام أكثر من أربعين نفراً[2] . وفي ذكر بعضهم في السابقين الأولين نظر .

قال ابن إسحاق : ثم دخل الناس في الإسلام أرسالا من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة ، وتحدث به[3] .

أسلم هؤلاء سراً ، وكان الرسول ﷺ يجتمع بهم ويرشدهم إلى الدين متخفياً ؛ لأن الدعوة كانت لا تزال فردية وسرية ، وكان الوحي قد تتابع وحمي نزوله بعد نزول أوائل المدثر . وكانت الآيات وقطع السور التي تنزل في هذا الزمان آيات قصيرة ، ذات فواصل رائعة منيعة ، وإيقاعات هادئة خلابة تتناسق مع ذلك الجو الهامس الرقيق ، تشتمل على تحسين تزكية النفوس ، وتقبيح تلويثها برغائم الدنيا ، تصف الجنة والنار كأنهما رأي عين ، تسير بالمؤمنين في جو آخر غير الذي فيه المجتمع البشري آنذاك .

الصلاة:

وكان في أوائل ما نزل الأمر بالصلاة ، قال مقاتل بن سليمان : فرض الله في أول الإسلام

(١) انظر لتسميته بهذا اللقب صحيح البخاري مناقب أبي عبيدة بن الجراح ١/٥٣٠ .

(٢) انظر سيرة ابن هشام ١/٢٤٥ إلى ٢٦٢ .

(٣) نفس المصدر ١/٢٦٢ .

الصلاة ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي، لقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ (٤٠ : ٥٥) وقال ابن حجر : كان ﷺ قبل الإسراء يصلي قطعاً ، وكذلك أصحابه ، ولكن اختلف هل فرض شيء قبل الصلوات الخمس من الصلوات أم لا ؟ فقيل إن الفرض كانت صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها . انتهى . وروى الحارث بن أسامة من طريق ابن لهيعة موصولاً عن زيد بن حارثة : أن رسول الله ﷺ في أول ما أوحي إليه أتاه جبريل ، فعلمه الوضوء ، فلما فرغ من الوضوء أخذ غرفة من ماء فنضح بها فرجه . وقد روى ابن ماجة بمعناه . وروى نحوه عن البراء بن عازب وابن عباس وفي حديث ابن عباس ، وكان ذلك من أول الفريضة[1] .

وقد ذكر ابن هشام أن النبي ﷺ وأصحابه كانوا إذا حضرت الصلاة ذهبوا في الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم ، وقد رأى أبو طالب النبي ﷺ وعلياً يصليان مرة ، فكلمهما في ذلك ، ولما عرف جلية الأمر أمرهما بالثبات[2] .

الخبر يبلغ إلى قريش إجمالاً:

يبدو بعد النظر في نواح شتى من الوقائع أن الدعوة – في هذه المرحلة – وإن كانت سرية وفردية ، لكن بلغت أنباءها إلى قريش ، بيد أنها لم تكترث بها .

قال محمد الغزالي : وترامت هذه الأنباء إلى قريش فلم تعرها اهتماماً ، ولعلها حسبت محمداً أحد أولئك الديانين ، الذين يتكلمون في الألوهية وحقوقها ، كما صنع أمية بن أبي الصلت ، وقس بن ساعدة ، وعمرو بن نفيل وأشباههم ، إلا أنها توجست خيفة من ذيوع خبره وامتداد أثره ، وأخذت ترقب على الأيام مصيره ودعوته[3] .

مرت ثلاث سنين والدعوة لم تزل سرية وفردية ، وخلال هذه الفترة تكونت جماعة من المؤمنين تقوم على الأخوة والتعاون ، وتبليغ الرسالة وتمكينها من مقامها، ثم تنزل الوحي يكلف رسول الله ﷺ بمعالنته قومه ، ومجابهة باطلهم ومهاجمة أصنامهم .

---

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص٨٨ .

(٢) ابن هشام ٢٤٧/١ .

(٣) فقه السيرة ص٧٦ .

المرحلة الثانية
الدعوة جهارا

أول أمر بإظهار الدعوة:

أول ما نزل بهذا الصدد قوله تعالى ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢٦ : ٢١٤) والسورة التي وقعت فيها الآية – وهي سورة الشعراء – ذكرت فيها أولاً قصة موسى عليه السلام من بداية نبوته إلى هجرته مع بني إسرائيل ، ونجاتهم من فرعون وقومه ، وإغراق آل فرعون معه ، وقد اشتملت هذه القصة على جميع المراحل التي مر بها موسى عليه السلام خلال دعوة فرعون وقومه إلى الله .

أرى أن هذا التفصيل إنما جيء به حين أمر الرسول ﷺ بدعوة قومه إلى الله ، ليكون أمامه وأمام أصحابه نموذجاً لما سيلقونه من التكذيب والاضطهاد حينما يجهرون بالدعوة ، وليكونوا على بصيرة من أمرهم منذ بداية دعوتهم .

ومن ناحية أخرى تشتمل هذه السورة على ذكر مآل المكذبين للرسل ، من قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم إبراهيم ، وقوم لوط ، وأصحاب الأيكة – علاوة على ما ذكر من أمر فرعون وقومه – ليعلم الذين سيقومون بالتكذيب بما يؤول إليه أمرهم وبما سيلقون من مؤاخذة الله إن استمروا على التكذيب ، وليعرف المؤمنون أن حسن العاقبة لهم لا للمكذبين .

الدعوة في الأقربين:

وأول ما فعل رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية أنه دعا بني هاشم فحضروا ، ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف ، فكانوا خمسة وأربعين رجلاً . فبادره أبو لهب وقال : وهؤلاء هم عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصُّباة . واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة ، وأنا أحق

من أخذك ، فحسبك بنو أبيك ، وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش ، وتمدهم العرب ، فما رأيت أحداً جاء على بني أبيه بشر مما جئت به ، فسكت رسول الله ﷺ ، ولم يتكلم في ذلك المجلس .

ثم دعاهم ثانية وقال : « الحمد الله أحمده ، وأستعينه ، وأومن به ، وأتوكل عليه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . ثم قال : إن الرائد لا يكذب أهله والله الذي لا إله إلا هو ، إني رسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس عامة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، وإنها الجنة أبداً أو النار أبداً » . فقال أبو طالب : ما أحب إلينا معاونتك ، وأقبلنا لنصيحتك ، وأشد تصديقنا لحديثك ، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون ، وإنما أنا أحدهم غير أني أسرعهم إلى ما تحب ، فامض لما أمرت به . فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك ، غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب .

فقال أبو لهب : هذه والله السوأة ، خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم ، فقال أبو طالب : والله لنمنعه ما بقينا[1] .

على جبل الصفا:

وبعدما تأكد النبي ﷺ من تعهد أبي طالب بحمايته ، وهو يبلغ عن ربه ، قام يوماً على الصفا فصرخ : يا صباحاه : فاجتمع إليه بطون قريش ، فدعاهم إلى التوحيد والإيمان برسالته وباليوم الآخر . وقد روى البخاري طرفاً من هذه القصة عن ابن عباس . قال : لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا ، فجعل ينادي يا بني فهر !. يا بني عدي ! لبطون قريش ، حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ؟ فجاء أبو لهب وقريش . فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك إلا صدقاً ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم . ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾[2] .

---

(١) ابن الأثير ، فقه السيرة ص٧٧ ، ٧٨ .

(٢) صحيح البخاري ٧٠٢/٢ ، ٧٤٣ ، والرواية مخرجة في صحيح مسلم أيضاً ١١٤/١ .

وروى مسلم طرفاً آخر من هذه القصة عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ فعم وخص. فقال: يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني كعب! أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد! أنقذي نفسك من النار، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً، إلا أن لكم رحماً سأبلها ببلالها[1].

هذه الصيحة العالية هي غاية البلاغ، فقد أوضح الرسول ﷺ لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة الصلات بينه وبينهم. وأن عصبية القرابة التي يقوم عليها العرب ذابت في حرارة هذا الإنذار الآتي من عند الله.

الصدع بالحق وردود فعل المشركين:

ولم يزل هذا الصوت يرتج دويه في أرجاء مكة حتى نزل قوله تعالى ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (٩٤:١٥) فقام رسول الله ﷺ يعكر على خرافات الشرك وترهاته، ويذكر حقائق الأصنام وما لها من قيمة في الحقيقة، يضرب بعجزها الأمثال، ويبين بالبينات أن من عبدها وجعلها وسيلة بينه وبين الله فهو في ضلال مبين.

انفجرت مكة بمشاعر الغضب، وماجت بالغرابة والاستنكار، حين سمعت صوتاً يجهر بتضليل المشركين وعباد الأصنام، كأنه صاعقة قصفت السحاب، فرعدت وبرقت وزلزلت الجو الهادئ، وقامت قريش تستعد لحسم هذه الثورة التي اندلعت بغتة، ويخشى أن تأتي على تقاليدها وموروثاتها.

قامت لأنها عرفت أن معنى الإيمان بنفي الألوهية عما سوى الله، ومعنى الإيمان بالرسالة وباليوم الآخر هو الانقياد التام والتفويض المطلق، بحيث لا يبقى لهم خيار في أنفسهم وأموالهم، فضلاً عن غيرهم. ومعنى ذلك انتفاء سيادتهم وكبريائهم على العرب، التي كانت بالصبغة الدينية، وامتناعهم عن تنفيذ مرضاتهم أمام مرضاة الله ورسوله، وامتناعهم عن المظالم التي كانوا يفترونها على الأوساط السافلة، وعن السيئات التي كانوا

---

(١) صحيح مسلم ١/١١٤ ، صحيح البخاري ١/٣٨٥ ، ٢/٧٠٢ ، مشكاة المصابيح ٢/٤٦٠.

يجترحونها صباح ومساء. عرفوا هذا المعنى فكانت نفوسهم تأبى عن قبول هذا الوضع «المخزي» لا لكرامة وخير ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ (٥:٧٥).

عرفوا كل ذلك جيداً، ولكن ماذا سيفعلون أمام رجل صادق أمين، أعلى مثل للقيم البشرية ولمكارم الأخلاق، لم يعرفوا له نظيراً ولا مثيلًا خلال فترة طويلة من تاريخ الآباء والأقوام؟ ماذا سيفعلون؟ تحيروا في ذلك، وحق لهم أن يتحيروا.

وبعد إدارة فكرتهم لم يجدوا سبيلًا إلا أن يأتوا إلى عمه أبي طالب، فيطلبوا منه أن يكف ابن أخيه عما هو فيه، ورأوا لإلباس طلبهم لباس الجد والحقيقة أن يقولوا: إن الدعوة إلى ترك آلهتهم، والقول بعدم نفعها وقدرتها سبة قبيحة وإهانة شديدة لها، وفيه تسفيه وتضليل لآبائهم الذين كانوا على هذا الدين، وجدوا هذا السبيل فتسارعوا إلى سلوكها.

وفد قريش إلى أبي طالب:

قال ابن إسحاق: مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه. فقال لهم أبو طالب قولًا رقيقاً، وردهم رداً جميلًا فانصرفوا عنه ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه، يظهر دين الله، ويدعو إليه[1].

المجلس الاستشاري لكف الحجاج عن استماع الدعوة:

وخلال هذه الأيام أهم قريشاً أمر آخر، وذلك أن الجهر بالدعوة لم يمض عليه إلا أشهر معدودة حتى قرب موسم الحج، وعرفت قريش أن وفود العرب ستقدم عليهم، فرأت أنه لا بد من كلمة يقولونها للعرب في شأن محمد ﷺ حتى لا يكون لدعوته أثر في نفوس العرب، فاجتمعوا إلى الوليد بن المغيرة يتداولون في تلك الكلمة، فقال لهم الوليد: أجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً، قالوا: فأنت فقل، قال: بل أنتم فقولوا أسمع. قالوا: نقول: كاهن. قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان، فما هو

---

(١) ابن هشام ١/٢٦٥.

بزمزمة الكاهن ولا سجعه . قالوا : فنقول : مجنون . قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، ما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول : شاعر . قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر ، قالوا : فنقول : ساحر . قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم . قالوا : فما نقول ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر . جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك[1] .

وتفيد بعض الروايات أن الوليد لما رد عليهم كل ما عرضوا له ، قالوا : أرنا رأيك الذي لا غضاضة فيه ، فقال لهم : أمهلوني حتى أفكر في ذلك ، فظل الوليد يفكر ويفكر ، حتى أبدى لهم رأيه الذي ذكر آنفاً[2] .

وفي الوليد أنزل الله تعالى ست عشرة آية من سورة المدثر (من ١١ إلى ٢٦) وفي خلالها صور كيفية تفكيره ، فقال : ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾ .

وبعد أن اتفق المجلس على هذا القرار أخذوا في تنفيذه ، فجلسوا بسبل الناس حين قدموا الموسم ، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا لهم أمره[3] .

والذي تولى كبر ذلك هو أبو لهب ، فقد كان رسول الله ﷺ يتبع الناس إذا وافى الموسم في منازلهم وفي عكاظ ومجنة وذي المجاز ، يدعوهم إلى الله ، وأبو لهب وراءه يقول : لا تطيعوه فإنه صابىء كذاب[4] .

---

(١) نفس المصدر ١/٢٧١ .

(٢) انظر في ظلال القرآن ٢٩ ، ١٨٨ .

(٣) ابن هشام ١/٢٧١ .

(٤) روى فعله هذا الترمذي عن يزيد بن رومان و .. عن طارق بن عبد الله المحاربي ورواه الإمام أحمد في مسنده ٣/٤٩٢ ، ٤/٣٤١ .

وأدى ذلك إلى أن صدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ ، وانتشر ذكره في بلاد العرب كلها .

أساليب شتى لمجابهة الدعوة:

ولما رأت قريش أن محمداً ﷺ لا يصرفه عن دعوته هذا ولا ذاك . فكروا مرة أخرى ، واختاروا لقمع هذه الدعوة أساليب تتلخص فيما يأتي :

١ – السخرية والتحقير ، والاستهزاء والتكذيب والتضحيك ، قصدوا بها تخذيل المسلمين ، وتوهين قواهم المعنوية ، فرموا النبي ﷺ بتهم هازلة وشتائم سفيهة ، فكانوا ينادونه بالمجنون ﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ (١٥:٦) ويصمونه بالسحر والكذب ﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ (٣٨ : ٤) وكانوا يشيعونه ويستقبلونه بنظرات ملتهمة ناقمة ، وعواطف منفعلة هائجة ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴾ (٦٨ : ٥١) وكان إذا جلس وحوله المستضعفون من أصحابه استهزأوا بهم وقالوا: هؤلاء جلساؤه ﴿ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ ﴾ (٦: ٥٣) قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾(٦ :٥٣) وكانوا كما قص الله علينا ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَـٰفِظِينَ ﴾ (٨٣ : ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣) .

٢ – تشويه تعاليمه وإثارة الشبهات ، وبث الدعايات الكاذبة ، ونشر الإيرادات الواهية حول هذه التعاليم ، وحول ذاته وشخصيته ، والإكثار من كل ذلك بحيث لا يبقى للعامة مجال في تدبر دعوته ، فكانوا يقولون عن القرآن : ﴿ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (٢٥ : ٥) ﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ ﴾ (٢٥ : ٤) وكانوا يقولون ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ ﴾(١٦ : ١٠٣) وكانوا يقولون عن الرسول ﷺ ﴿ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ (٢٥ : ٧) وفي القرآن نماذج كثيرة للردود على إيراداتهم بعد نقلها أو من غير نقلها .

٣ – معارضة القرآن بأساطير الأولين ، وتشغيل الناس بها عنه . فقد ذكروا أن النضر بن

الحارث قال مرة لقريش : يا معشر قريش ! والله لقد نزل بكم أمر ما أوتيتم له بحيلة بعد . قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم : ساحر . لا والله ما هو بساحر . لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ، وقلتم : كاهن . لا والله ما هو بكاهن . قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم ، وقلتم : شاعر . لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه ، وقلتم : مجنون . لا والله ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ، ولا وسوسته ، ولا تخليطه ، يا معشر قريش فانظروا في شأنكم ، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم .

ثم ذهب النضر إلى الحيرة ، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس ، وأحاديث رستم وأسفنديار ، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً للتذكير بالله والتحذير من نقمته خلفه النضر ، ويقول : والله ما محمد بأحسن حديثاً مني ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وأسفنديار ، ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثاً مني[1] .

وتفيد رواية ابن عباس أن النضر كان قد اشترى قينات ، فكان لا يسمع برجل مال إلى النبي ﷺ إلا سلط عليه واحدة منها ، تطعمه وتسقيه ، وتغني له ، حتى لا يبقى له ميل إلى الإسلام ، وفيه نزل قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[2] .

٤ ـ مساومات حاولوا بها أن يلتقي الإسلام والجاهلية في منتصف الطريق بأن يترك المشركون بعض ما هم عليه ، ويترك النبي ﷺ بعض ما هو عليه ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ (٦٨ : ٩) فهناك رواية رواها ابن جرير والطبراني تفيد أن المشركين عرضوا على رسول الله ﷺ أن يعبد آلهتهم عاماً ، ويعبدون ربه عاماً . ورواية أخرى لعبد بن حميد تفيد أنهم قالوا : لو قبلت آلهتنا نعبد إلهك[3] .

وروى ابن إسحاق بسنده ، قال : اعترض رسول الله ﷺ ـ وهو يطوف بالكعبة ـ

---

(١) ابن هشام ٢٩٩/١ ، ٣٠٠ ، ٣٥٨ ، وتفهم القرآن ٨/٤ ، ٩ ، مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص١١٧ ، ١١٨ .

(٢) تفهم القرآن ٩/٤ .

(٣) تفهم القرآن ٥٠١/٦ ، ٢٠٥ .

الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى والوليد بن المغيرة وأمية بن خلف والعاص بن وائل السهمي – وكانوا ذوي أسنان في قومهم – فقالوا يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد فنشترك نحن وأنت في الأمر ، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه ، فأنزل الله تعالى فيهم ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ السورة كلها[1] .

وحسم الله مفاوضتهم المضحكة بهذه المفاصلة الحازمة .

ولعل اختلاف الروايات لأجل أنهم حاولوا هذه المساومة مرة بعد أخرى .

الاضطهادات:

أعمل المشركون الأساليب التي ذكرناها شيئاً فشيئاً لكف الدعوة بعد ظهورها في بداية السنة الرابعة من النبوة ، ومضت على ذلك أسابيع وشهور وهم مقتصرون على هذه الأساليب ، لا يتجاوزونها إلى طريق الاضطهاد والتعذيب ، ولكنهم لما رأوا أن هذه الأساليب لا تجدي لهم نفعاً في كف الدعوة الإسلامية ؛ اجتمعوا مرة أخرى ، وكونوا منهم لجنة أعضاؤها خمسة وعشرون رجلاً من سادات قريش ، رئيسها أبو لهب عم رسول الله ﷺ ، وبعد التشاور والتفكر اتخذت هذه اللجنة قراراً حاسماً ضد رسول الله ﷺ ، وضد أصحابه . فقررت أن لا تألو جهداً في محاربة الإسلام ، وإيذاء رسوله ، وتعذيب الداخلين فيه ، والتعرض لهم بألوان من النكال والإيلام[2] .

اتخذوا هذا القرار وصمموا على تنفيذه . أما بالنسبة إلى المسلمين – ولا سيما المستضعفين منهم – فكان ذلك سهلاً جداً . وأما بالنسبة إلى رسول الله ﷺ فإنه كان رجلاً شهماً وقوراً ذا شخصية فذة ، تتعاظمه نفوس الأعداء والأصدقاء ، بحيث لا يقابل مثلها إلا بالإجلال والتشريف ، ولا يجترىء على اقتراف الدنايا والرذائل ضده إلا أراذل الناس وسفهاؤهم ، ومع ذلك كان في منعة أبي طالب ، وأبو طالب من رجال مكة المعدودين ، كان معظماً في أصله ، معظماً بين الناس ، فما يجسر أحد على إخفار ذمته واستباحة بيضته ، إن هذا الوضع أقلق قريشاً

(١) ابن هشام ٣٦٢/١ .

(٢) رحمة للعالمين ٥٩/١ ، ٦٠ .

وأقامهم وأقعدهم ، ولكن إلام هذا الصبر الطويل أمام دعوة تتشوف إلى القضاء على زعامتهم الدينية ، وصدارتهم الدنيوية .

وبدأوا الاعتداءات ضد النبي ﷺ ، وعلى رأسهم أبو لهب ، فقد اتخذ موقفه هذا من رسول الله ﷺ منذ اليوم الأول قبل أن تهم قريش بذلك . وقد أسلفنا ما فعل بالنبي ﷺ في مجلس بني هاشم ، وما فعل على الصفا ، وقد ورد في بعض الروايات أنه – حينما كان على الصفا – أخذ حجراً ليضرب به النبي ﷺ[1] .

وكان أبو لهب قد زوج ولديه عتبة وعتيبة ببنتي رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم قبل البعثة ، فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما بعنف وشدة ، حتى طلقاهما[2] .

ولما مات عبد الله – الابن الثاني لرسول الله ﷺ – استبشر أبو لهب ، وهرول إلى رفقائه يبشرهم بأن محمداً صار أبتر[3] .

وقد أسلفنا أن أبا لهب كان يجول خلف النبي ﷺ في موسم الحج والأسواق لتكذيبه ، وقد روى طارق بن عبد الله المحاربي ما يفيد أنه كان لا يقتصر على التكذيب ، بل كان يضربه بالحجر حتى يدمى عقباه[4] .

وكانت امرأة أبي لهب – أم جميل بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان – لا تقل عن زوجها في عداوة النبي ﷺ ، فقد كانت تحمل الشوك وتضعه في طريق النبي ﷺ وعلى بابه ليلاً ، وكانت امرأة سليطة تبسط فيه لسانها ، وتطيل عليه الافتراء والدس ، وتؤجج نار الفتنة ، وتثير حرباً شعواء على النبي ﷺ ، ولذلك وصفها القرآن بحمالة الحطب .

ولما سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ، ومعه أبو بكر الصديق ، وفي يدها فهر (أي بمقدار ملء الكف) من حجارة ، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ ، فلا ترى إلا أبا بكر ، فقالت : يا أبا بكر ! أين صاحبك ؟ قد بلغني أنه يهجوني ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه ، أما

(١) روى ذلك الترمذي .

(٢) في ظلال القرآن ٣٠/٢٨٢ ، تفهم القرآن ٦/٥٢٢ .

(٣) تفهم القرآن ٦/٤٩٠ .

(٤) جامع الترمذي .

والله إني لشاعرة . ثم قالت :

مذمماً عصينا * وأمره أبينا * ودينه قلينا

ثم انصرفت ، فقال أبو بكر : يا رسول الله أما تراها رأتك ؟ فقال : ما رأتني ، لقد أخذ الله ببصرها عني[1] .

وروى أبو بكر البزار هذه القصة . وفيها أنها لما وقفت على أبي بكر قالت : « أبابكر هجانا صاحبك ، فقال أبو بكر : لا ورب هذه البنية ، ما ينطق بالشعر ولا يتفوه به ، فقالت : إنك لمصدق » .

كان أبو لهب يفعل كل ذلك وهو عم رسول الله ﷺ وجاره ، كان بيته ملصقاً ببيته ، كما كان غيره من جيران رسول الله ﷺ يؤذونه وهو في بيته .

قال ابن إسحاق : كان النفر الذين يؤذون رسول الله ﷺ في بيته أبا لهب ، والحكم بن أبي العاص بن أمية ، وعقبة بن أبي معيط ، وعدي بن حمراء الثقفي ، وابن الأصداء الهذلي – وكانوا جيرانه – لم يسلم منهم أحد إلا الحكم بن أبي العاص[2] ، فكان أحدهم يطرح عليه ﷺ رحم الشاة وهو يصلي ، وكان أحدهم يطرحها في برمته إذا نصبت له ، حتى اتخذ رسول الله ﷺ حجراً ليستتر به منهم إذا صلى ، فكان رسول الله ﷺ إذا طرحوا عليه ذلك الأذى يخرج به على العود ، فيقف به على بابه ، ثم يقول : يا بني عبد مناف ! أي جوار هذا ؟ ثم يلقيه في الطريق[3] .

وازداد عقبة بن أبي معيط في شقاوته وخبثه ، فقد روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أن النبي ﷺ كان يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس ، إذ قال بعضهم لبعض أيكم يجيء بسلا جزور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد . فانبعث أشقى القوم (وهو عقبة بن أبي معيط)[4] فجاء به فنظر ، حتى إذا سجد النبي لله وضع على ظهره بين كتفيه ، وأنا أنظر ، لا أغني شيئاً ، لو كانت لي منعة ، قال : فجعلوا يضحكون ،

(١) انظر سيرة ابن هشام ١/٣٣٥ ، ٣٣٦ .

(٢) هو أبو الخليفة الأموي مروان بن الحكم .

(٣) ابن هشام ١/٤١٦ .

(٤) صرح بذلك في صحيح البخاري نفسه ١/٥٤٣ .

ويحيل بعضهم على بعض (أي يتمايل بعضهم على بعض مرحاً وبطراً)، ورسول الله ﷺ ساجد، لا يرفع رأسه حتى جاءته فاطمة، فطرحته عن ظهره، فرفع رأسه، ثم قال: اللهم عليك بقريش ثلاث مرات، فشق ذلك عليهم إذ دعا عليهم، وقال: وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة، ثم سمى اللهم عليك بأبي جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط ــ وعد السابع فلم يحفظه ــ فوالذي نفسي بيده لقد رأيت الذي عدّ رسول الله ﷺ صرعى في القليب، قليب بدر[1].

وكان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه. وفيه نزل: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ قال ابن هشام: الهمزة: الذي يشتم الرجل علانية، ويكسر عينيه، ويغمز به. واللمزة: الذي يعيب الناس سراً ويؤذيهم[2].

أما أخوه أبي بن خلف فكان هو وعقبة بن أبي معيط متصافيين. وجلس عقبة مرة إلى النبي ﷺ وسمع منه، فلما بلغ ذلك أبياً أتّبه وعاتبه وطلب منه أن يتفل في وجه رسول الله ﷺ ففعل. وأُبي بن خلف نفسه فت عظماً رميماً ثم نفخه في الريح نحو رسول الله ﷺ[3].

وكان الأخنس بن شريق الثقفي ممن ينال من رسول الله ﷺ، وقد وصفه القرآن بتسع صفات تدل على ما كان عليه، وهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾. (٦٨: ١٠ - ١٣).

وكان أبو جهل يجيء أحياناً إلى رسول الله ﷺ يسمع منه القرآن، ثم يذهب عنه فلا يؤمن ولا يطيع، ولا يتأدب ولا يخشى، ويؤذي رسول الله ﷺ بالقول، ويصد عن سبيل الله، ثم يذهب مختالاً بما يفعل، فخوراً بما ارتكب من الشر، كأنما فعل شيئاً يذكر، وفيه نزل: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ إلخ[4] وكان يمنع النبي ﷺ عن الصلاة منذ أول يوم رآه يصلي في الحرم، ومرة مر به وهو يصلي عند المقام فقال: يا محمد ألم أنهك عن هذا، وتوعده فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره. فقال: يا محمد بأي شيءٍ تهددني؟ أما

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب إذا ألقى على المصلي قذر أو جيفة ١/٣٧.

(٢) ابن هشام ١/٣٥٦، ٣٥٧.

(٣) نفس المصدر ١/٣٦١، ٣٦٢.

(٤) في ظلال القرآن ٢٩/٢١٢.

والله إني لأكثر هذا الوادي نادياً. فأنزل ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾[1]. وفي رواية أن النبي ﷺ أخذ بخناقه، وهزه، وهو يقول له: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ فقال عدو الله: أتوعدني يا محمد؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئاً، وإني لأعز من مشى بين جبليها[2].

ولم يكن أبو جهل ليفيق من غباوته بعد هذا الانتهار، بل ازداد شقاوة فيما بعد. أخرج مسلم عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم! فقال: واللات والعزى، لئن رأيته لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ رقبته، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهؤلاء أجنحة، فقال رسول الله ﷺ: لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً[3].

كانت هذه الاعتداءات بالنسبة إلى النبي ﷺ مع ما لشخصيته الفذة من وقار وجلال في نفوس العامة والخاصة، ومع ما له من منعة أبي طالب أعظم رجل محترم في مكة، أما بالنسبة إلى المسلمين ــ ولا سيما الضعفاء منهم ــ فإن الإجراءات كانت أقسى من ذلك وأمر، ففي نفس الوقت قامت كل قبيلة تعذب من دان منها بالإسلام أنواعاً من التعذيب، ومن لم يكن له قبيلة فأجرت عليهم الأوباش والسادات ألواناً من الاضطهاد، يفزع من ذكرها قلب الحليم.

كان أبو جهل إذا سمع برجل قد أسلم له شرف ومنعة أنبه وأخزاه، وأوعده بإبلاغ الخسارة الفادحة في المال، والجاه، وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به[4].

وكان عم عثمان بن عفان يلفه في حصير من أوراق النخيل ثم يدخنه من تحته[5].

ولما علمت أم مصعب بن عمير بإسلامه أجاعته وأخرجته من بيته، وكان من أنعم الناس عيشاً، فتخشف جلده تخشف الحية[6].

---

(١) نفس المصدر ٢٠٨/٣٠.
(٢) نفس المصدر ٣١٢/٢٩.
(٣) رواه مسلم في صحيحه.
(٤) ابن هشام ٣٢٠/١.
(٥) رحمة للعالمين ٥٧/١.
(٦) نفس المصدر ٥٨/١، وتلقيح فهوم أهل الأثر ص٦٠.

وكان بلال مولى أمية بن خلف الجمحي ، فكان أمية يضع في عنقه حبلاً ، ثم يسلمه إلى الصبيان ، يطوفون به في جبال مكة ، حتى كان يظهر أثر الحبل في عنقه ، وكان أمية يشده شداً ثم يضربه بالعصا ، وكان يلجئه إلى الجلوس في حر الشمس ، كما كان يكرهه على الجوع ، وأشد من ذلك كله أنه كان يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول : لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى . فيقول – وهو في ذلك – أحد ، أحد ، حتى مر به أبو بكر يوماً وهم يصنعون ذلك به ، فاشتراه بغلام أسود ، وقيل بسبع أواق أو بخمس من الفضة وأعتقه[1] .

وكان عمار بن ياسر رضي الله عنه مولى لبني مخزوم ، أسلم هو وأبوه وأمه ، فكان المشركون – وعلى رأسهم أبو جهل – يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء ، فيعذبونهم بحرها . ومر بهم النبي ﷺ وهم يعذبون فقال : صبراً آل ياسر ! فإن موعدكم الجنة ، فمات ياسر في العذاب ، وطعن أبو جهل سمية – أم عمار – في قبلها بحربة فماتت ، وهي أول شهيدة في الإسلام ، وشددوا العذاب على عمار بالحر تارة ، وبوضع الصخر أحمر على صدره أخرى ، وبالتغريق أخرى . وقالوا : لا نتركك حتى تسب محمداً ، أو تقول : في اللات والعزى خيراً ، فوافقهم على ذكر مكرهاً ، وجاء باكياً معتذراً إلى النبي ﷺ ، فأنزل الله ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ (١٦ : ١٠٦)[2] .

وكان أبو فكيهة – واسمه أفلح – مولى لبني عبد الدار ، فكانوا يشدون برجله الحبل ، ثم يجرونه على الأرض[3] .

وكان خباب بن الأرت مولى لأم أنمار بنت سباع الخزاعية ، فكان المشركون يذيقونه أنواعاً من التنكيل ، يأخذون بشعر رأسه فيجذبونه جذباً ، ويلوون عنقه تلوية عنيفة وأضجعوه مرات عديدة على فحام ملتهبة ، ثم وضعوا عليه حجراً ؛ حتى لا يستطيع أن يقوم[4] .

---

(١) رحمة للعالمين ١/٥٧ ، تلقيح الفهوم ص٦١ ، ابن هشام ١/٣١٧ ، ٣١٨ .

(٢) ابن هشام ١/٣١٩ ، ٣٢٠ ، فقه السيرة لمحمد الغزالي ص٨٢ وروى بعض ذلك العوفي عن ابن عباس ، انظر مختصر السيرة للشيخ عبد الله ص٩٢ .

(٣) رحمة للعالمين ١/٥٧ ، من إعجاز التنزيل ص٥٣ .

(٤) نفس المصدر ١/٥٧ ، تلقيح فهوم أهل الأثر ص٦٠ .

وكانت زنيرة والنهدية وابنتها وأم عبيس إماء أسلمن ، وكان المشركون يسومونهن من العذاب أمثال ما ذكرنا . وأسلمت جارية لبني مؤمل – وهم حي من بني عدي – فكان عمر بن الخطاب – وهو يومئذ مشرك – يضربها ، حتى إذا مل قال : إني لم أتركك إلا ملالة[1] .

وابتاع أبو بكر هذه الجواري فأعتقهن ، كما أعتق بلالاً وعامر بن فهيرة[2] .

وكان المشركون يلفون بعض الصحابة في إهاب الإبل والبقر ، ثم يلقونه في حر الرمضاء ، ويلبسون بعضاً آخر درعاً من الحديد ثم يلقونه على صخرة ملتهبة[3] .

وقائمة المعذبين في الله طويلة ومؤلمة جداً ، فما من أحد علموا بإسلامه إلا تصدوا له وآذوه .

دار الأرقم:

كان من الحكمة تلقاء هذه الاضطهادات أن يمنع رسول الله ﷺ المسلمين عن إعلان إسلامهم قولاً أو فعلاً ، وأن لا يجتمع بهم إلا سراً ؛ لأنه إذا اجتمع بهم علنا فلا شك أن المشركين يحولون بينه وبين ما يريد من تزكية المسلمين وتعليمهم الكتاب والحكمة ، وربما يفضي ذلك إلى مصادمة الفريقين ، بل وقع ذلك فعلاً في السنة الرابعة من النبوة ، وذلك أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يجتمعون في الشعاب ، فيصلون فيها سراً ، فرآهم نفر من كفار قريش ، فسبوهم وقاتلوهم ، فضرب سعد بن أبي وقاص رجلاً فسال دمه ، وكان أول دم أهريق في الإسلام[4] .

ومعلوم أن المصادمة لو تعددت وطالت لأفضت إلى تدمير المسلمين وإبادتهم ، فكان من الحكمة الاختفاء ، فكان عامة الصحابة يخفون إسلامهم وعبادتهم ودعوتهم واجتماعهم ، أما رسول الله ﷺ فكان يجهر بالدعوة والعبادة بين ظهراني المشركين ، لا يصرفه عن ذلك شيء ، ولكن كان يجتمع مع المسلمين سراً ؛ نظراً لصالحهم وصالح الإسلام ، وكانت دار الأرقم بن

---

(١) رحمة للعالمين ٥٧/١ ، ابن هشام ٣١٩/١ .

(٢) ابن هشام ٣١٨/١ ، ٣١٩ .

(٣) رحمة للعالمين ٥٨/١ .

(٤) ابن هشام ٢٦٣/١ ، مختصر سيرة الرسول لمحمد بن عبد الوهاب ص٦٠ .

أبي الأرقم المخزومي على الصفا . وكانت بمعزل عن أعين الطغاة ومجالسهم ، فكان أن اتخذها مركزاً لدعوته ، ولاجتماعه بالمسلمين من السنة الخامسة من النبوة[1] .

الهجرة الأولى إلى الحبشة:

كانت بداية الاضطهادات في أواسط أو أواخر السنة الرابعة من النبوة ، بدأت ضعيفة ، ثم لم تزل يوماً فيوماً وشهراً فشهراً حتى اشتدت وتفاقمت في أواسط السنة الخامسة ، حتى نبا بهم المقام في مكة ، وأوعزتهم أن يفكروا في حيلة تنجيهم من هذا العذاب الأليم ، وفي هذه الساعة الضنكة الحالكة نزلت سورة الكهف ، ردوداً على أسئلة أدلى بها المشركون إلى النبي ﷺ ، ولكنها اشتملت على ثلاث قصص ، فيها إشارات بليغة من الله تعالى إلى عباده المؤمنين ، فقصة أصحاب الكهف ترشد إلى الهجرة من مراكز الكفر والعدوان حين مخافة الفتنة على الدين ، متوكلاً على الله ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ (١٨ : ١٦) .

وقصة الخضر وموسى تفيد أن الظروف لا تجري ولا تنتج حسب الظاهر دائماً ، بل ربما يكون الأمر على عكس كامل بالنسبة إلى الظاهر . ففيها إشارة لطيفة إلى أن الحرب القائمة ضد المسلمين ستنعكس تماماً ، وسيصادر هؤلاء الطغاة المشركون – إن لم يؤمنوا – أمام هؤلاء الضعفاء المدحورين من المسلمين .

وقصة ذي القرنين تفيد أن الأرض لله يورثها من عباده من يشاء . وأن الفلاح إنما هو في سبيل الإيمان دون الكفر ، وأن الله لا يزال يبعث من عباده – بين آونة وأخرى – من يقوم بإنجاء الضعفاء من يأجوج ذلك الزمان ومأجوجه ، وأن الأحق بإرث الأرض إنما هم عباد الله الصالحون . ثم نزلت سورة الزمر تشير إلى الهجرة ، وتعلن بأن أرض الله ليست بضيقة ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣٩ : ١٠) وكان رسول الله ﷺ قد علم أن أصحمة النجاشي ملك الحبشة ملك عادل ، لا يظلم عنده أحد ، فأمر المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة فراراً بدينهم من الفتن .

وفي رجب سنة خمس من النبوة هاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة . كان مكوناً من

(١) نفس المصدر الأخير ص٦١ .

اثني عشر رجلاً وأربع نسوة ، رئيسهم عثمان بن عفان ، ومعه السيدة رقية بنت رسول الله ﷺ ، وقد قال النبي ﷺ فيهما : إنهما أول بيت هاجر في سبيل الله بعد إبراهيم ولوط عليهما السلام[1] .

كان رحيل هؤلاء تسللا في ظلمة الليل – حتى لا تفطن لهم قريش – خرجوا إلى البحر ، ويمموا ميناء شعيبة ، وقيضت لهم الأقدار سفينتين تجاريتين أبحرتا بهم إلى الحبشة ، وفطنت لهم قريش ، فخرجت في آثارهم ، لكن لما بلغت إلى الشاطيء كانوا قد انطلقوا آمنين ، وأقام المسلمون في الحبشة في أحسن جوار[2] .

وفي رمضان من نفس السنة خرج النبي ﷺ إلى الحرم ، وهناك جمع كبير من قريش ، كان فيه ساداتها وكبراؤها ، فقام فيهم ، وأخذ يتلو سورة النجم بغتة ، إن أولئك الكفار لم يكونوا سمعوا كلام الله قبل ذلك ، لأن أسلوبهم المتواصل كان هو العمل بما تواصى به بعضهم بعضاً ، من قولهم ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (٤١ : ٢٦) فلما باغتهم بتلاوة هذه السورة ، وقرع آذانهم كلام إلهي رائع خلاب – لا يحيط بروعته وجلالته البيان – تفانوا عما هم فيه ، وبقي كل واحد مصغياً إليه ، لا يخطر بباله شيء سواه ، حتى إذا تلا في خواتيم هذه السورة قوارع تطير لها القلوب ثم قرأ ﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ (٥٣ : ٦٢) ثم سجد ، لم يتمالك أحد نفسه حتى خر ساجداً ، وفي الحقيقة كانت روعة الحق قد صدعت العناد في نفوس المستكبرين والمستهزئين ، فما تمالكوا أن يخروا لله ساجدين[3] .

وسقط في أيديهم لما أحسوا أن جلال كلام الله لوى زمامهم ، فارتكبوا عين ما كانوا يبذلون قصارى جهدهم في محوه وإفنائه ، وقد توالى عليهم اللوم والعتاب من كل جانب ، ممن لم يحضر هذا المشهد من المشركين ، وعند ذلك كذبوا على رسول الله ﷺ وافتروا عليه أنه عطف على أصنامهم بكلمة تقدير ، وأنه قال عنها « تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى » ، جاءوا بهذا الإفك المبين ، ليعتذروا عن سجودهم مع النبي ﷺ ، وليس يستغرب هذا من قوم كانوا

---

(١) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص٩٢ ، ٩٣ ، زاد المعاد ٢٤/١ ، رحمة للعالمين ٦١/١ .

(٢) رحمة للعالمين ٦١/١ ، زاد المعاد ٢٤/١ .

(٣) روى البخاري قصة السجود مختصراً عن ابن مسعود وابن عباس ، انظر باب سجدة النجم وباب سجود المسلمين والمشركين ١٤٦/١ ، وباب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ٥٤٣/١ .

يؤلفون الكذب ، ويطيلون الدس والافتراء[1] .

بلغ هذا الخبر إلى مهاجري الحبشة ، ولكن في صورة تختلف تماماً عن صورته الحقيقية ، بلغهم أن قريشاً أسلمت ، فرجعوا إلى مكة في شوال من نفس السنة ، فلما كانوا دون مكة ساعة من نهار ، وعرفوا جلية الأمر ، رجع منهم من رجع إلى الحبشة ، ولم يدخل في مكة من سائرهم أحد إلا مستخفياً ، أو في جوار رجل من قريش[2] .

ثم اشتد عليهم وعلى المسلمين البلاء والعذاب من قريش ، وسطت بهم عشائرهم ، فقد كان صعب على قريش ما بلغها عن النجاشي من حسن الجوار ، ولم ير رسول الله ﷺ بدا من أن يشير على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة مرة أخرى ، وكانت هذه الهجرة الثانية أشق من سابقتها ، فقد تيقظت لها قريش وقررت إحباطها ، بيد أن المسلمين كانوا أسرع ، ويسر الله لهم السفر فانحازوا إلى نجاشي الحبشة قبل أن يدركوا .

وفي هذه المرة هاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلاً إن كان فيهم عمار ، فإنه يشك فيه ، وثمان عشرة أو تسع عشرة امرأة[3] . وبالأول جزم العلامة محمد سليمان المنصورفوري[4] .

مكيدة قريش بمهاجري الحبشة:

عز على المشركين أن يجد المهاجرون مأمناً لأنفسهم ودينهم ، فاختاروا رجلين جليدين لبيبين ، وهما : عمرو بن العاص ، وعبد الله بن أبي ربيعة – قبل أن يسلما – وأرسلوا معهما الهدايا المستطرفة للنجاشي ولبطارقته ، وبعد أن ساق الرجلان تلك الهدايا إلى البطارقة ، وزوداهم بالحجج التي يطرد بها أولئك المسلمون ، وبعد أن اتفقت البطارقة أن يشيروا على النجاشي بإقصائهم ، حضرا إلى النجاشي ، وقدما له الهدايا ثم كلماه ، فقالا له :

أيها الملك ، إنه قد ضوى إلى بلدك غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من

---

(١) تفهم القرآن ١٨٨/٥ وإلى هذا التوجيه جنح المحققون في حديث الغرانيق .

(٢) نفس المصدر ١٨٨/٥ . زاد المعاد ٢٤/١ ، ٤٤/٢ ، وابن هشام ٣٦٤/١ .

(٣) انظر زاد المعاد ٢٤/١ ، رحمة للعالمين ٦١/١ .

(٤) انظر المصدر الأخير .

آبائهم وأعمامهم وعشائرهم ، لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه .

وقالت البطارقة : صدقا أيها الملك ، فأسلمهم إليهما ، فليرداهم إلى قومهم وبلادهم .

ولكن رأى النجاشي أنه لا بد من تمحيص القضية ، وسماع أطرافها جميعاً ، فأرسل إلى المسلمين ، ودعاهم ، فحضروا ، وكانوا قد أجمعوا على الصدق كائناً ما كان . فقال لهم النجاشي : ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به في ديني ولا دين أحد من هذه الملل ؟

قال جعفر بن أبي طالب – وكان هو المتكلم عن المسلمين – : أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل منا القوي الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام – فعدد عليه أمور الإسلام – فصدقناه ، وآمنا به ، واتبعناه على ما جاءنا به من دين الله ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك .

فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ فقال له جعفر : نعم ! فقال له النجاشي : فاقرأه عليّ . فقرأ عليه صدراً من ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ، ثم قال لهم النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون – يخاطب عمرو بن العاص وصاحبه – فخرجا ، وقال عمرو بن العاص لعبد الله بن

ربيعة: والله لآتينهم غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم. فقال له عبد الله بن ربيعة: لا تفعل، فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا، ولكن أصر عمرو على رأيه.

فلما كان الغد قال للنجاشي: أيها الملك! إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولًا عظيماً، فأرسل إليهم النجاشي يسألهم عن قولهم في المسيح، ففزعوا، ولكن أجمعوا على الصدق، كائناً ما كان، فلما دخلوا عليه، وسألهم قال له جعفر: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

فأخذ النجاشي عوداً من الأرض، ثم قال: والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود، فتناخرت بطارقته، فقال: وإن نخرتم والله.

ثم قال للمسلمين: اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي ــ والشيوم: الآمنون بلسان الحبشة ــ من سبكم غرم، من سبكم غرم، من سبكم غرم، ما أحب أن لي دبراً من ذهب وأني آذيت رجلًا منكم ــ والدبر الجبل بلسان الحبشة.

ثم قال لحاشيته: ردّوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيَّ فأطيعهم فيه.

قالت أم سلمة التي تروي هذه القصة: فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءوا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار[1].

هذه رواية ابن إسحق، وذكر غيره أن وفادة عمرو بن العاص إلى النجاشي كانت بعد بدر، وجمع بعضهم بأن الوفادة كانت مرتين[2] لكن الأسئلة والأجوبة التي ذكروا أنها دارت بين النجاشي وجعفر في الوفادة الثانية هي نفس الأسئلة والأجوبة التي ذكرها ابن إسحق تقريباً، ثم إن تلك الأسئلة تدل لفحواها أنها كانت في أول مرافعة قدمت إلى النجاشي.

أخفقت حيلة المشركين، وفشلت مكيدتهم، وعرفوا أنهم لا يشيعون ضغينتهم إلا في حدود سلطانهم، ونشأت فيهم من أجل ذلك فكرة رهيبة. رأوا أن التفصي عن هذه «الداهية» لا يمكن إلا بكف رسول الله ﷺ عن دعوته تماماً، وإلا فبإعدامه، ولكن كيف السبيل إلى

---

(١) ابن هشام ملخصاً ١/٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨.

(٢) مختصر السيرة للشيخ عبد الله النجدي ص٩٦، ٩٧، ٩٨، وفي تلك الصفحات تفصيل الأسئلة والأجوبة.

ذلك وأبو طالب يحوطه ويحول بينه وبينهم ؟ رأوا أن يواجهوا أبا طالب في هذا الصدد .

قريش يهددون أبا طالب:

جاءت سادات قريش إلى أبي طالب فقالوا له : يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا . وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه ، وإنا والله لا نصبر على هذا ، من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك ، حتى يهلك أحدّ الفريقين .

عظم على أبي طالب هذا الوعيد والتهديد الشديد ، فبعث إلى رسول الله ﷺ وقال له : يا ابن أخي إن قومك قد جاؤوني ، فقالوا لي كذا وكذا ، فأبق عليَّ وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق ، فظن رسول الله ﷺ أن عمه خاذله ، وأنه ضعُف عن نصرته ، فقال : يا عم ! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر – حتى يظهره الله أو أهلك فيه – ما تركته ، ثم استعبر وبكى ، وقام ، فلما ولى ناداه أبو طالب فلما أقبل قال له : اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً[1] .

وأنشد :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسد في التراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة ... وأبشر وقر بذاك منك عيونا[2]

قريش بين يدي أبي طالب مرة أخرى:

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ ماض في عمله ؛ وعرفت أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله ﷺ، وأنه مجمع لفراقهم وعداوتهم في ذلك ، فذهبوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة وقالوا له : يا أبا طالب إن هذا الفتى أنهد فتى في قريش وأجمله ، فخذه فلك عقله ونصره ، واتخذه ولداً فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم ، فنقتله ، فإنما هو رجل برجل ، فقال : والله لبئس ما تسومونني ، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابني تقتلونه . هذا والله ما لا يكون أبداً . فقال المطعم بن

---

(١) ابن هشام ١/٢٦٥ ، ٢٦٦ .

(٢) مختصر سيرة الرسول للشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي ص٦٨ .

عدي بن نوفل بن عبد مناف : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك ، وجهدوا على التخلص مما تكره ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً ، فقال : والله ما أنصفتموني ، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم عليّ ، فاصنع ما بدا لك[1] .

لا تذكر المصادر التاريخية زمن هاتين الوفادتين ، لكن يبدو بعد التأمل في القرائن والشواهد أنهما كانتا في أواسط السنة السادسة من النبوة ، وأن الفصل بين الوفادتين لم يكن إلا يسيراً .

فكرة الطغاة في إعدام النبي - ﷺ -

بعد فشل قريش وخيبتهم في الوفادتين عادوا إلى ضراوتهم وتنكيلهم بأشد مما كان قبل ذلك ، وخلال هذه الأيام نشأت في طغاتهم فكرة إعدامه ﷺ بطريق أخرى ، وكانت هذه الفكرة وتلك الضراوة هي التي سببت في تقوية الإسلام ببطلين جليلين من أبطال مكة ، وهما : حمزة بن عبد المطلب ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

فمن تلك الضراوة أن عتيبة بن أبي لهب أتى يوماً إلى رسول الله ﷺ فقال : أنا أكفر بـ ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ و بالذي ﴿ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ ثم تسلط عليه بالأذى ، وشق قميصه ، وتفل في وجهه ، إلا أن البزاق لم يقع عليه ، وحينئذ دعا عليه النبي ﷺ وقال : « اللهم سلط عليه كلباً من كلابك » ، وقد استجيب دعاؤه ﷺ ، فقد خرج عتيبة مرة في نفر من قريش ، حتى نزلوا في مكان من الشام يقال له الزرقاء ، فطاف بهم الأسد تلك الليلة ، فجعل عتيبة يقول : يا ويل أخي ، هو والله آكلي كما دعا محمد عليّ ، قتلني وهو بمكة ، وأنا بالشام ، فغدا عليه الأسد من بين القوم وأخذ برأسه فذبحه[2] .

ومنها ما ذكر أن عقبة بن أبي معيط وطىء على رقبته الشريفة وهو ساجد حتى كادت عيناه تبرزان[3] .

---

(١) ابن هشام ٢٢٦/١ ، ٢٦٧ .

(٢) تفهم القرآن ٥٢٢/٦ ، من الاستيعاب ، والإصابة ، ودلائل النبوة ، والروض الأنف ، ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص١٣٥ .

(٣) نفس المصدر الأخير ص١١٣ .

ومما يدل على أن طغاتهم كانوا يريدون قتله ﷺ ما رواه ابن إسحق في حديث طويل ، قال : قال أبو جهل :

يا معشر قريش إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وشتم آلهتنا ، وإني أعاهد الله لأجلسن له بحجر ما أطيق حمله ، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه ، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ، قالوا : والله لا نسلمك لشيء أبداً ، فامض لما تريد .

فلما أصبح أبو جهل ، أخذ حجراً كما وصف ، ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره ، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو ، فقام يصلي ، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ، ينتظرون ما أبو جهل فاعل ، فلما سجد رسول الله ﷺ ، احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه ، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقعاً لونه ، مرعوباً قد يبست يداه على حجره ، حتى قذف الحجر من يده ، وقامت إليه رجال قريش فقالوا له : مالك يا أبا الحكم ؟ قال : قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل ، لا والله ما رأيت مثل هامته ، ولا مثل قصرته ولا أنيابه لفحل قط ، فهمَّ بي أن يأكلني .

قال ابن إسحق : فذكر لي أن رسول الله ﷺ قال : ذلك جبريل عليه السلام لو دنا لأخذه[1] .

وبعد ذلك فعل أبو جهل برسول الله ﷺ ، ما أدى إلى إسلام حمزة رضي الله عنه وسيأتي .

أما طغاة قريش فلم تزل فكرة الإعدام تنضج في قلوبهم ، روى ابن إسحاق عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : حضرتهم وقد اجتمعوا في الحجر ، فذكروا رسول الله ﷺ ، فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم ، فبينا هم كذلك إذ طلع رسول الله ﷺ ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفاً بالبيت ، فغمزوه ببعض القول ، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفت ذلك في وجهه ، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها ، فوقف ثم قال : أتسمعون يا معشر قريش ، أما

---

(١) ابن هشام ١/٢٩٨ ـ ٢٩٩ .

والذي نفسي بيده ، لقد جئتكم بالذبح ، فأخذت القوم كلمته ، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع حتى إن أشدهم فيه ليرفؤه بأحسن ما يجد ، ويقول : انصرف يا أبا القاسم ، فوالله ما كنت جهولاً .

فلما كان الغد اجتمعوا كذلك يذكرون أمره إذ طلع عليهم ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به ، فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع ردائه ، وقام أبو بكر دونه ، وهو يبكي ويقول : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟ ثم انصرفوا عنه . قال ابن عمرو : فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً نالوا منه قط[1] . انتهى ملخصاً .

وفي رواية البخاري عن عروة بن الزبير قال : سألت ابن عمرو بن العاص أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ ، قال : بينا النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط ، فوضع ثوبه في عنقه ، فخنقه خنقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه ، ودفعه عن النبي ، وقال : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟[2] .

وفي حديث أسماء : فأتى الصريخ إلى أبي بكر ، فقال : أدرك صاحبك ، فخرج من عندنا ، وعليه غدائر أربع ، فخرج وهو يقول : أتقتلون رجلاً أن يقول : ربي الله ؟ فلهوا عنه ، وأقبلوا على أبي بكر ، فرجع إلينا لا نمس شيئاً من غدائره إلا رجع معنا[3] .

إسلام حمزة بن عبدالمطلب:

خلال هذا الجو الملبد بسحائب الظلم والطغيان أضاء برق نور للمقهورين طريقهم ، ألا وهو إسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، أسلم في أواخر السنة السادسة من النبوة ، والأغلب أنه أسلم في شهر ذي الحجة .

وسبب إسلامه أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ يوماً عند الصفا ، فآذاه ونال منه ، ورسول الله ﷺ ساكت لا يكلمه ، ثم ضربه أبو جهل بحجر في رأسه فشجه ، حتى نزف منه الدم ، ثم انصرف عنه إلى نادي قريش عند الكعبة ، فجلس معهم ، وكانت مولاة لعبد الله بن

---

(١) ابن هشام ١/٢٨٩ ، ٢٩٠ .

(٢) صحيح البخاري – باب ذكر ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة ١/٥٤٤ .

(٣) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي ص١١٣ .